

تقديم

المتنبى شاعر كبير من شعراء المائة الرابعة الهجرية واسمه أحمد بن الحسين وكنيته أبو الطيب ولقبه المتنبى وذكر اسمه في قوله من قصيدة

جمعت بين جسم (أحمد) والسقم وبين الجفون والتسديد
وذكر عبد الجليل بن وهبون الشاعر الأندلسي اسم أبيه في قوله حين
سمع المعتمد بن عباد ملك قرطبة واشيلية يتمثل بشعر معجبا به فقال ارتجالا:
لئن جاد شعرا بن (الحسين) فانما * بجود العطايا (واللهي تفتح الله) (١)
تنبأ عجبا بالقريض ولو درى * أنك تروى شعره لتأها (٢)
والمتنبى أحد أفذاذ الزمان وسيد شعراء عصره وأمام من جاء بعد وفيه
يقول من أنصفه (٣)

مارأى الناس ثانيا المتنبى * أى ثان يرى لبكر الزمان
هو فى شعره نبى ولكن * ظهر من معجزاته فى المعانى
مؤلفه

ولد فى الكوفة سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) من أبوين فقيرين فبلغ بهمته
وعبقريته اسمى مراتب الشهرة وقد حققت الأيام ظنه. فيما قاله عن نفسه:
وما الدهر إلا من رواة قصائدى * إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا * وغنى به من لا يغنى مفردا
فطوت ذكر كثير من عظماء الرجال وأبقت اسم المتنبى خالدًا إلى صفحاتها

حياة المتنبى بين الأمل والأمل

ما استطعت أن أعرف المتنبى من هاتين الناحيتين إلا بعد أن قسمت حياته
إلى أربعة أطوار

١ اللهى بالضم العطايا واحدها هوى - وبالفصح - انتهى سقف الفم يريد أن العطايا تبعث على اجادة المدح
٢ القريض الشعر (٣) المظفر بن على الشاعر

الأول = طور بؤسه . وذلك من مولده الى أن لحق بسيف الدولة على بن

حمدان سنة ٣٣٧ هجرية (٩٤٨ م)

الثاني = طور سعته . وهو مدة اتصاله بسيف الدولة الى أن فارقه سنة

٣٤٦ (٩٥٧ م)

الثالث = طور رجائه . وهو مدة اتصاله بكافور الإخشيد ملك مصر الى

أن رحل عنه سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م)

الرابع = طور بأسه . وهو من وقت خروجه من مصر الى أن قتل

سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م)

بؤس المتنبي وأسبابه

« استغرق البؤس الذي لزم المتنبي . زهرة شبابه . فانه ولد من أب فقير معدم يبيع الماء في الكوفة « سقا » وتعلم في المكتب ثم رحل به أبوه الى الشام لطلب العلم مع قلة ذات يده ثم مات أبوه وعدم المنفق . وفيه مدح الامراء وذاق لوعة الحسد والكيد من الوشاة ومرارة الخفاء والحرمان من الممدوحين فهجرجح بالسهم وأخذ يتلمس الطريق التي يصل منها الى منزلة يستطيع عندها أن ينتقم لنفسه

واليك بيان ذلك

ظهرت نجابة المتنبي وهو في المكتب (١) وصار يحفظ كل ما يسمع من شعر : أوثر : وقال الشعر قبل أن يحسن القراءة والكتابة ، ولما رأى أبوه ذلك منه كان له مثال الأب الحكيم فلم يكلفه احترام مهنته بل رحل به الى الشام فتلقى العلم والأدب عن علمائها ثم دخل البادية وأخذ لغة العرب عن فصاحتها فأصبح بذلك نابعة زمانه وجاد نظمته ونثره ، واشهر بين الأدباء أمره ، فلما أحس من نفسه بأنه جاء بآيات البلاغة ، ومعجزات المعاني ، حدثته نفسه بأن ليس في هذا العالم مثله وان هذه الكائنات لاشي . اذا قيست به فقال معجباً بنفسه :

(١) من ترجمته التي في ديوانه بتصرف كثير

أى محل ارتقى * أى عظيم اتقى
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محقر فى همى * كشجرة فى مفرق

ثم أراد أن يعرف الناس بنفسه كما ظنها فادعى النبوة فى بادية السماوة
فتبعه بعض جهال أهلها وعلم به صاحب حص فقاتله واعتقله ثم استتابه فتاب
وعاد من هذه المغامرة بلقب (المتنبي) واطنه لم يدع النبوة لغير الشهرة وحب
الرياسة لقوله فى قصيدة للحاكم وهو فى الاعتقال يعتذر

وكن فارقاً بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأور بعيد
أى أن ما أردته من دعوى غير ما فهمه الناس منها . وبعد إطلاقه من السجن
بعد صيته وأخذ يمدح الأمراء والعظماء رغبة فى نيل جوائزهم فوجد منهم
بعض العطف عليه ثم انعكس ذلك العطف إلى كره وابعاد . وأصبح إذا بش
هذا فى وجهه فى الصباح قطب له فى المساء وإذا ظفربود أحداً قلب الود بعد قليل
إلى جفاء فرقت حاله وتكدر صفاء حياته وصار يتلصص للرزق بشعره
شتى الوسائل : فلا يعود بطائل

وأول ألم أصابه بعد ألم الفاقة اعتقاله حين أدعى النبوة فوضع فى السجن مكبلاً
بالحديد . ويظهر لك مدى ألمه فى ذلك من قوله مستغيثاً بالحاكم ليغفر عنه

دعوتك عند انقطاع الرجا . * والموت منى كجبل الوريد
دعوتك لما برانى البلاء . * واوهن رجلى ثقل الحديد
ثم اشتد به البؤس بعد ذلك فقال يشكو سوء حظه وتقلبه فى البلاد طلباً
لرزقه بغير جدوى :

ضاق صدرى وطال فى طلب الرز * ق قيامى وقلّ عنه قعودى
أبدأ أقطع البلاد ونجمى * فى نحوس وهمى فى سعود
وقال لمن عجب لبؤسه مع جودة شعره ولألمه على تقصيره فى السعى
ليس التعلل بالآمال من أربى * ولا القناعة بالآقلال من شيمى
ولا أظن بنات الدهر تتركنى * حتى تسد عليها طرقها همى

لم الليالى الى اخنت على جدتى * برقة الحال واعذرنى ولا تلم
نظر المتنبي الى نفسه الكبيرة وما تجلى عليها من الالباء والشمم فقال البيت
الاول . ثم التفت الى الدهر يهدده بمقابلة الشر بالشر ويحذره نفسه فقال البيت
الثانى . ثم نظر الى ظاهره ومخالفته لما يعجب الناس من حسن البرزة فقال البيت
الثالث . كأنه يقول فيه لمحدثه انى لا أملك ظواهرى ولا سلطان لى على ما ينتابها من
التغير فلا تلبنى على شىء ليس أمره فى يدى . ثم ذكر له بعد ذلك سبب برقة
حاله فقال

أرى أناساً ومحصولى على غم * وذكر جود ومحصولى على كلم
أى يسمع بالاجواد فيمدحهم فيعود غنياً بالوعود فقيراً من النقود
وقال يصف كثرة تنقله وعدم استقراره فى مكان وهو من اعظم مظاهر بؤسه :
ألفت ترحلى وجعلت أرضى * قنودى والغريزى الجلالا (١)
فما حاولت فى أرض مقاماً * ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قلق كأن الريح تحتى * أوجهها جنوباً أو شمالا
وقال لسعيد بن عبدالله يشكو ما أصابه فى سبيل الوصول اليه ومالحقه من
الآلم رجاء خيره :

حتى وصلت بنفس مات أكثرها * وليتنى عشت منها بالذى فضلا
أرجو نداك ولا أخشى المطال به * يامن إذا وهب الدنيا فتدفعلا
وأصدق الشواهد على مدى ما بلغه من خيبة الأمل بشعره قوله يستنهض همته ويحثها
على طلب الرزق بغير الشعر وهو من أنفس القول فى الحض على العمل : —
الى كم ذا التخلف والتوانى * وكم هذا التماذى فى التماذى
وشغل النفس عن طلب المعالى * ببيع الشعر فى سوق الكساد
وما مضى الشباب بمسترد * ولا يوم يمر بمستعاد
وقوله ويدلك البيت الاول على أن ثيابه كانت بالية والثانى على أنه كاد ينتحر
من شدة البؤس

(١) القنود خشب الرجل والفريرى بغيره نسبة الى لعل كريم يسمى غريراً يريد انه لكثرة تنقله
جعل اقامته على ظهر بغيره والجلال الجليل

إلى أى حين أنت فى زى محرم * وحتى متى فى شقوة وإلى كم
والإتمت تحت السيوف مكرماً * تمت وتقاسى الذل غير مكرم
قُب واثقاً بالله وثبة ماجد * يرى الموت فى الهيجاجنى النحل فى الفم
فهذه الآيات قالها المتنبي عن نفسه فى طور بؤسه وهى تكفى لتمثيل حاله
فتريك نفساً عالية ، فى ثياب بالية ، وشاعر أمجيداً ، أطرحة الناس بعيداً ، مع
انك لا تجد شعراً أبهج وأورع ، ولا قولاً أحكم وأجمع . ولا مدحاً أبلغ وأمتع ،
ولا وصفاً أسهب وأبدع من شعره . وانك لتعجب حين ترى أن هذا الشعر
النفيس فى تلك النفس الكبيرة كان سبب شقاء قائله وعله آلامه فى حياته وأنه
أخذ بناصيته بعد ذلك إلى حتفه . ولكن أتدرى ما السبب فى ذلك ؟ فخصت
شعره عن العلة فيما أصابه فوجدت ذلك يرجع إلى أربعة أمور
أولها - أن المتنبي نشأ مبغضاً للناس جميعاً سىء الظن بهم
الثانى - انه كان شديد الكبرياء . فخوراً بنفسه محقراً لما عداها
الثالث - انه كان إذا هجا أخش فى الهجاء
الرابع - انه كان اذا مدح أميراً عرض فى مدحه بدم الناس جميعاً أو ذم
من مدحهم قبله

فهذه الخلال الأربع حملت الناس على البعد عنه والنفور منه وجعلته هدفاً
لسهام حساده . وحالت بينه وبين مراده . واليك بيانها

(١) كراهة المتنبي للناس

ظهرت هذه الغريزة فى المتنبي وهو صبي فى المكتب حين قال له رجل
ما أحسن هذه الوفرة لشعرات فى رأسه فقال مرتجلاً
لا تحسن الوفرة حتى ترى * منشورة الضفرين يوم القتال
على قتيّ معتقل صعدة * يعلمها من كل وافي السبال (١)
فكان رأيه فى الناس قبل أن يخالطهم . ان يكون فى حرب ووفرة منشورة
على كتفيه وفى يده رمح يطعن به من الناس كل ذى شاربين كبيرين

وإذا قرأت قوله عن نفسه

وقيل عدوت على العالمين * بين ولادى وبين القعود
أدركت أن الناس اتهموه بالعداوة لهم منذ طفولته وقالوا إن هذا الشاعر
ولد عدوًّا للعالم . وقد صدقوا في هذا الاتهام فإنه لما كبر أبان لهم رأيه فيهم بقوله

ودهر ناسه ناس صغار * وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم والعيش فيهم * ولكن معدن الذهب الرغام (١)
أرانب غير أنهم ملوك * مفتحة عيونهم نيام
فدم الناس جميعاً سوى نفسه . وليست هذه الآيات قائمة بنفسها حتى يقال
أنه يفتخر أو يتألم بل يقولها في قصيدة يمدح بها المغيث بن علي وهو من أمراء
ذلك العصر فلما أراد الدخول إلى ذكر الممدوح عاد إلى ذم الناس ثانية وأخرجه
من بينهم كما أخرج نفسه أولاً فقال

ولم أر مثل جيرانى ومثلى * لمثلى عند مثلهم مقام
بأرض ما اشتيت رأيت فيها * فليس يفوتها إلا الكرام
بها الجبلان من صخر وغر * أنافا ذا المغيث وذا اللكام (٢)
وليست من مواطنه ولكن * يمر بها كما مر الغمام
ويقول فيهم زاعماً أنه أكلهم تجربة إذا كان غيره قد ذاقهم فقط :
إذا ما الناس جربهم لبيب * فاني قد أكلتهم وذاقا
فلم أر ودتهم إلا خداعاً * ولم أر دينهم إلا نقاقاً (٣)
ثم يقول مستريحاً أهلاً بهم :

ومن عرف الأيام معرقتى بها * وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس يرحوم إذا ظفروا به * ولا في الردى الجارى عليهم بآثم
يريد أن من يقتل هؤلاء الناس بلا رحمة لا يعد ظالماً ، لأنهم إذا ظفروا به
قتلوه بلا رحمة أيضاً . فإذا بدأهم هو بذلك فلا إثم عليه البتة

(١) الرغام - التراب . يقول : أنا لست منهم واقامت بينهم كالذهب الذى يوجد مختلطاً بالتراب

(٢) يقول إن هذه البلاد فيها كل شيء إلا الكرام (أنافا) ارتفعاً واللكام جبل عظيم في الشام يمر
بجهاً وينتهى عند انطاكية . (٣) دينهم أى عادتهم (النفاق)

ثم قال واصفاً تفاوتهم في النقائص :

أذم الى هذا الزمان أهيله * فاعلمهم قدم . وأحزمهم وغد^(١)
وأكرمهم كلب . وأبصرهم عم * وأسدهم فهد . وأشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحرّ ان يرى * عدواً له ما من صداقته بد
يقول هذا في قصيدة يمدح بها أميراً يسمى علي بن سيار فذم الناس جميعاً لم
يستثن منهم أحداً حتى ولا الممدوح وعدّ صداقته لهم من نكد الدنيا .
ولعمري أن الممدوح لو مدح في هذه القصيدة بألف بيت لما غيرت فكره
بأنه هو المقصود في قوله : « عدواً له ما من صداقته بد »

فهذا رأى المتنبي في الناس وهذه عقيدته التي ينشرها بينهم ويدكرها مفصلة
في قصائده التي يمدح بها ملوكهم وهي أقطع الأدلة على بغضه لهم وأقوى
أسباب بغضهم له

٢ - كبرياؤه ونفخه بنفسه

اشتهر المتنبي بالكبرياء في جميع حياته ووصف نفسه بأوصاف تدل على
شدة كبريائه فمن ذلك قوله :

أنا الذي بين الآله به الأقدار والمرء حيثما جعله
جوهرة تفرح الشراف بها * وغصة لا تسيغها السفلة^(٢)
يدعى أن الله أعطاه قوة في القول فهو يصف الناس بما فيهم فيظهر مقدار
كل منهم « يرر بذلك ذمهم » وأنه لا يقول فيهم الا الحق .
وقوله معجباً بنفسه :

إن أكن معجباً فعجب عجب * لم يحمد فوق نفسه من مزيد

(١) القدم التي في منطقة ثقل ، الوغد الخسيس من الناس ، أسدهم أكثرهم سهداً ، القهد
حيوان كثير النوم ، القرد مشهور بشدة الخوف ويقصد المتنبي بذلك التهم عليهم .

(٢) الشراف : الاشراف

أنا ترب الندى ورب القوافى * وسام العدى وكيد الحسود (١)
أنا فى أمة تداركها الله غريباً كصالح فى ثمود
يقول إن أكن معجباً بنفسى فأنا جدير بذلك لأنى لم أجد فوقها نفساً . ثم
بين فى البيت الثانى منازلہ فى العالم وفى البيت الثالث سأل الله أن يهتدى الامة
الى الصواب فتعرف قدره وتؤمن برفعته عليها .

وقوله :

أنا صخرة الوادى اذا ما زوحت * واذا نطقت فأتى الجوزاء (٢)
أى لا يجسر أحد على مزاحمتہ لصلابته واذا تكلم فكلامه أمر لا يرد
وقوله :

إن ترمى نكبات الدهر عن كعب * ترمى امرء غير رعديد ولا نكس
يريد أنه لا يبالى بالمصائب بل يقابلها بهمة تبدها . وحسبك من هذا
الباب قوله :

أعط عنك تشبہى بمن وكأنته * فما أحد فوقى ولا أحد مثلى
أى لا تقل ما أشبه المتنبي بفلان أو كأنته فلان فليس فوقى أحد بل ليس
مثلى أحد . وقد مر بك قوله : « أى محل أرتقى »

فهذه الأقوال تدلک على مدى كبريائه وتمهد العذر لاعدائه وانى أرى أنه
ما كان يلقى على أحد سلاماً ولا يرد السلام على أحد تكبراً وقد لاهمه
بعض أصحابه على ذلك فقال يعتذر :

أنا عاتب لتعبك * متعجب لتعجبك
اذ كنت حين لقيتني * متوجعاً لتغيبك
فشغلت عن رد السلام * وكان شغلى عنك بك

(١) نرى أى ولد معه الندى . الكرم ، القوافى . الشعر ، والسام . السلام . تداركها الله . دعا .
ثمود . قوم صالح عليه السلام . ويقال إن الناس لما سمعوا هذا البيت قالوا (تنبأ) للاغراء به فلقب بالمتنبى
من ثمة

(٢) الجوزاء : أحد البروج . عن كعب : عن قرب . والرديد : الجبان والنكس الذى لا خير فيه

وهذا عذر أظنه لا ينطلي على أحد .
فهذه مظاهر كبرياء المتنبي وهي لا تجعل له في الناس محباً

٣ - فحشه في الهجاء

يعجب الباحث في أخلاق المتنبي حين يراه مع علو نفسه وترفعه عن كثير من النقائص يفحش في هجائه فيقطعن في الانساب ويقذف المحصنات ثم لا يجد لذلك من باعث غير سوء ظنه بالناس وشدة بغضه لهم . وبما أن كتابي هذا لا يتناول المتنبي من هذه الناحية . فأنا أكتفى بإيراد أمثلة قليلة من هجائه تأييداً للسبب في نفور الناس منه .

فمن ذلك قوله في صباه مهجو القاضي الذهبي :

لما انتسبت فكنت ابناً لغير أب (١) * ثم اختبرت فلم ترجع الى أدب

سميت بالذهبي اليوم تسمية * مشتقة من ذهاب العقل لا الذهب

ملقب بك ما لقت ويك به * يا أيها اللقب الملقى على اللقب

فشل هذا القذف المر تنفر منه نفس الحر

وقال في قصيدة يمدح بها بدر بن عمار معرضاً بمن زعم أنه وشى به اليه :

وانه المشير على فيك بضلة * فالحر ممتحن بأولاد الزنا (٢)

ومثل هذه الألفاظ لا تليق برجل تدنيه الملوك من مجالسهم وينشد

شعره بين أيديهم

وهجاء اسحاق بن كيغلع على غير ذنب سوى أنه أعترضه أثناء سيره

بالقرب من أرضه وطلب منه أن ينزل عنده ليمدحه فاعتذر المتنبي فلما فارقه

هجاه بقصيدة مدح بها أبا العشائر وعرض في الهجاء بأهل اسحاق تعريضاً

لا يحسن ذكره لما اشتمل عليه من فحش القول وإنما أذكر لك ما قاله في

هجاء اسحاق نفسه وهو :

(١) أي من سفاح

(٢) أنه : فعل أمر (بضلة) أي يقول في صفى غير صواب

وجفونه ما تستقر كأنها * مطروقة أو فت فيها حصرم (١)
 وإذا أشار محدثاً كأنه * قد يقهقه أو عجوز تلطم
 وتراه اصغر ما تراه ناطقاً * ويكون الكذب ما يكون ويقسم
 وهذه القصيدة إذا جردت من الهجاء كانت من أنفس الشعر فإنها جمعت
 فرائد الأمثال كقوله فيها :

لو كان يمكنني سفرت عن الصبا * فالشيب من قبل الأوان تلثم (٢)
 ولقد رأيت الحادثات فلم أر * يققاً يميت ولا سواداً يعصم (٣)
 والهلم يخترم الجسم نحافة * ويشيب ناصية الصبي ويهرم
 ذو العقل يشقى في النعيم بعقله * وأخو الجهالة في الشقاء منع
 والناس قد نبذوا الحفاظ فطلق * ينسى الذي يولى وآخر يندم (٤)
 لا يخذعنك من عدو دمعته * وارحم شبابك من عدو ترحم
 لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى * حتى يراق على جوانبه الدم
 يؤذى القليل من اللثام بطبعه * من لا يقل كما يقل ويلوم
 والظلم من شيم النفوس فإن تجد * ذا عفة فلعله لا يظلم
 ومن البلية جهل من لا يرعوى * عن غيه وخطاب من لا يفهم
 والذل يظهر في الذليل مودة * واود منه لمن يود الأرقم
 ومن العدواة ما ينالك نفعه * ومن الصداقة ما يضر ويؤلم
 فانظر إلى هذه الدرر الفريدة كيف نظمها مع الخرز في سلك واحد -

واعجب من ذلك أن إسحق هذا قتله غلبانه فلم يكتف المتنبى بموته بل هجاه
 ميتاً وهذا من اسوء ما جاء به . وإني أذكر لك قوله فيه لخلوه من الفحش مع شدة
 إغراقه في الهجاء :

(١) الحصرم . العنب قبل أن ينضج وهو كثير الخوض

(٢) أى أن الشيب غطى وجهه شبابه

(٣) البقق : الابيض أى أن الشيب لا يسبب الموت والشعر الاسود لا يعصم منه

(٤) الحفاظ . المحافظة على الحقوق أى أن الناس تركوا ما يجب عليهم نحو بعضهم

قالوا لنا مات اسحق فقلت لهم * هذا الدواء الذى يشفى من الحق (١)
 ان مات مات بلا فقد ولا أسف * أو عاش عاش بلا خلق ولا خلق
 منه تعلم عبد شق هامته * خون الصديق ودس الغدر فى الملق (٢)
 وحلف الف يمين غير صادقة * مطرودة ككعوب الريح فى نسق (٣)
 مازلت أعرفه قرداً بلا ذنب * خلوا من البأس مملوءاً من النزق (٤)
 كريشة فى مهب الريح ساقطة * لا تستقر على حال من القلق (٥)
 تستغرق الكف فوديه ومنكبه * فتكتسى منه ربح الجورب العرق (٦)
 فسائلوا قاتليه كيف مات لهم * موتاً من الضرب أو موتاً من الفرق (٧)
 وأين موقع حد السيف من شبح * بغير جسم ولا رأس ولا عتق
 لولا اللثام وشيء من مشابهة * لكان الأم طفل اف فى خرق (٨)
 هذه أمثلة من هجاء المتنبي قبل اتصاله بسيف الدولة فلما اتصل به خفت
 وطأة لسانه لا تساع نعمته فى صحبته وبعد أن فارقه هجا كافوراً بعد مدحه وهجا
 ضبة العيني وعرض بأمه بقول كان سيئاً لقتله كما ستراه فى طور يأسه

٤ — ذم المتنبي من يمدحهم عند مدح غيرهم

هذه عادة لم يأت المتنبي بأغرب منها ولم أرها لشاعر غيره وقد لزمته
 طيلة حياته فى جميع قصائده فما مدح أحداً إلا وفضله على جميع الناس وتفنن
 فى هذا المعنى تفنناً عجيباً وقد بينت لك جميع ما رأيت له من هذا النوع لتطلع
 على قدرة هذا الشاعر وكيف يصوغ المعنى الواحد فى مظاهر كثيرة
 قال فى قصيدة مدح بها محمد بن عبدالله الخطيب معرضاً بزم الناس وملوكهم:

(١) الحق الجبل (٢) يقول أن العبد الذى قتله نلم الحياة منه (٣) كعب الريح ، بين العذتين (٤) النزق
 الخفة والطيش
 (٥) القلق الاضطراب (٦) أى أنه إذا صنع أحاطت الكف بجاني رأيه مع كنفه لانه لا عتق له وتعود من
 لسه رائحة تنه (٧) الفرق الخوف (٨) يقول لولا وجود لثام كثيرين غيره يشبهونه لكان الأم الناس

وانما نحن في جيل سواسية * شر على الحر من سقم على بدن (١)
 حولي بكل مكان منهم خلق * تخطى اذا قلت في استفهامها بمن
 ولا أعاشر من أملاهم ملكا * الا أحق بضرب الرأس من وثن
 فانت ترى أنه لم يستثن أحدا من الدم
 ثم قال في الحسن بن عبيد الله :

كريم لفظت الناس لما بلغته * كأنهم ما جف من زاد قادم (٢)
 وكان سروري لا يفي بندامتي * على تركه في عمري المتقادم
 فأفرد الممدوح وذم الناس ومنهم ممدوحه الاول طبعا
 ثم قال في علي بن أحمد وكان شاعرا وعالما :

دعاني اليك العلم والحلم والحجا * وهذا الكلام النظم والنائل النثر (٣)
 وما قلت من شعر تكاد يبوته * اذا كتبت يبيض من نورها الخبر
 وجنبي قرب السلاطين مقتها * وما يقتضيني من جماجمها النسر
 فمدحه وذم ملوك زمانه وجعل عذره لبعده عنهم ان النسور تطالبه
 برؤوسهم وهو لا يقدر على ذلك الآن ،
 ثم قال في علي بن ابراهيم التنوخي :

أشرت أبا الحسين بمدح قوم * نزلت بهم فسرت بغير زاد
 وظنوني مدحتهم قديما * وأنت بما مدحتهم مرادى
 يقول انه كان فرحا بمدح من مدحهم قبله ولكن خرج من عندهم بغير
 زاد وانه لم يكن مادحا لهم في الواقع بل كان هو المقصود
 ثم قال في عبد الله بن يحيى :

بمن أضرب الامثال ثم أقيسه * اليك وأهل الدهر دونك والدهر
 وفي أبي عبادة :-

لما وزنتك بالدنيا قلت بها * وبالورى قل عندى كثرة العدد

(١) الجيل الناس : سواسية متشابهون ولا تستفهم عنهم بمن هذا لانها خاصه بالعقل وهم ليسوا كذلك

(٢) أى فضلة ما بقى من الخبز مع القادم من السفر (٣) الحجا العقل والنائل العطاء

وفي بدر بن عمار :

ومثلك يابدر لا يكون ولا * تصلح الا لمثلك الدول
وفيه مكرراً هذا المعنى أيضا :

سبقت السابقين فلا تجارى * وجاوزت القلوب فلا تعالى
وأقسم لو صلحت يمين شيء * لما صلح الأنام له شمالا
ثم قال في علي بن منصور :

أمهجن الكرماء والمذرى بهم * وتروك كل كريم قوم عاتبا
شادوا مناقبهم وشدت مناقباً * وجدت مناقبهم بن مثالباً
وقال في عبد الواحد الكاتب فضله على الملوك وغيرهم :

وزارك نى دون الملوك تخرج * اذا عن بحر لم يحزلى التيمم (١)

فعش لو فدى الملوك رباً بنفسه * من الناس لم تفقد وفي الارض مسلم
فجعله سيداً للناس جميعاً وقال لوصح أن يفدى الملوك سيده بنفسه لظل
المسلمون يقدونه بأنفسهم جيلاً بعد جيل حتى لا يبقى على ظهر الأرض منهم
أحد وهذا من غرائب المدح ، وقال في أبي الفرج القاضى :

قصدتك والراجون قصدى اليهم * كثير ولكن ليس كالذنب الأنف
ولا الفضة البيضاء والتبر واحد * نفوعان للمكدي وبينهما صرف (٢)
ثم تغالى بعد ذلك فقال في أبي شجاع محمد :

أمر يد مثل محمد في عصرنا * لا تبلنا بطلاب مالا يلحق

لم يخلق الرحمن مثل محمد * أحداً وظنى انه لا يخلق

وفي علي بن أحمد الطائى :

ألا كل سمح غيرك اليوم باطل * وكل مديح في سواك مضيع

ولا ثوب مجد غير ثوب ابن أحمد * على أحد الأبلوم مرقع

ثم قال في جعفر بن كيغلغ :

(١) زارك أى زرتك — وعن . ظهر

(٢) التبر النعب والمكدي المحتاج وصرف أى فضل يريد كلاهما نافع غير أن النعب أكثر نفعاً كذلك انت

لى من الذين يرومون ذهاب اليهم

من قال لست بخير الناس كلهم • فجعله بك عند الناس عاذره
أوشك أنك فرد في زمانهم • بلا نظير في روى أخاطره
ثم قال في المساور بن احمد :

ان القريض شج بعطفي عائد • من أن يكون سواءك الممدوح
وفي أحمد بن عمران
ذكر الانام لنا فكان قصيدة • كنت البديع الفرد من أبياتها
وفي علي بن عساكر :

أرى الناس الظلام وأنت نور • واني منهم لأليك عاش
وفي طاهر بن الحسين العلوي وخرج فيه عن حد الذوق :
ويحذى عرايين الملوك وانها • انى قدميه في اجل المراتب

هذه هي سنته في مدح أمراء عصره وهي لا تجعل لهم ثقة بمدحه وان
محافظة على هذه الحطة الغريبة تدفعني الى الظن بأنه كان اذا أراد مدح أمير وقف
حائراً بين كبريائه وفاقه ، تلك تأمره ان لا يمدح احداً من هذا العالم لانهم
دونه منزلة ، وهذه تغريه بمدح الاكابر ليحصل منهم على رزقه ؛ فيوفق بين
طلبهما بان يثنى على الممدوح مداراة لفاقه ويذم ما عداه ارضاء لكبريائه .
وقد رأيت له في هذا الباب اعجب مما تقدم برأيته شق عليه تفضيل الممدوح
وحده على الناس كلهم وهو داخل في مجموعهم فأشرك نفسه مع مدوحه فقال
في علي بن سيار :

ألوم به من لامني في وداده • وحق لخير الخلق من خيره الود
فجعل نفسه ومدوحه خير الخلائق .

وقال في ابى العشار :

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ • كلانا رب المعاني الدقاق
ولأخال مثل هذا المدح خطر يبال شاعر قلبه ولا احسب حساده لدى ابى
العشار تمكنوا منه باكثر من هذا البيت وظنى بهم وقد قالوا للأمير بأى

شيء مدحك هذا المستجدي بشعره حين سواك بنفسه؟ فكان ذلك سبب جفائه له .
وانظر الى ادب الشريف الرضى . فى مثل هذا حين عاتب الامام القادر
العباسى قائلاً :

عطفاً أمير المؤمنين فأننا * فى ساحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت * أبداً كلانا فى المعالى معرق
إلا الخلافة ميزتك فأننى * أنا عاطل منها وأنت مطوق
فاعترف له بأن الخلافة ميزته عنه ، ومع أنهما أبناء عم فقد غضب الامام
وقال له ، على رغم أنف الشريف .

وأحسن ما للمتنبى فى هذا الباب قوله فى سيف الدولة :
لا تطلبن كريماً بعد رؤيته * ان الكرام بأسيانهم يداً ختموا
ولا تبالى بشعر بعد شاعره * قد أفسد القول حتى أحمد الضم
فقد جعله أكرم الكرام وجعل نفسه أشعر الشعراء وفى هذا لا عتب
عليه البتة .

ومما يدعوا إلى العجب ان هذه العادة لزمته حتى آخر أيامه ، فقد قال فى سيف
الدولة وهو من أبدع المعانى :

رأيتك فى الذين أرى ملوكاً * كأنك مستقيم فى محال (١)
فان تفق الأثام وأنت منهم * فان المسك بعض دم الغزال
وقال فيه من قصيدة أخرى وهو أغرب ما صدر من شاعر :

إن كان مثلك كان أو هو كائن * فبرئت حينئذ من الاسلام
ومع هذا كله فانه لما بلغ كافوراً قال فيه بعد وصف الركائب التى حملته اليه
قواصد كافور (توارك غيره) * ومن قصد البحر استقل السواقيا
لجاءت بنا إنسان عين زمانه * وخلت بياضاً خلفها وما قيا (٢)
فلما تركه قال فى حاكم شيراز وهى آخر قصيدة قالها

(١) يريد موجوداً فى معدوم (٢) جعله سواد عين الزمان وما عداه من الملوك بياضاً

وَمَنْ أَعْتَاضَ عَنْكَ إِذَا اقْتَرَقْنَا * وَكُلَّ النَّاسَ زَوْراً مَا عَدَاكَ
حَيِّئْ مِنْ إلهي أَنْ يرَانِي * وَقَدْ فَارَقْتَ دَارَكَ وَأَصْطَفَاكَ
فهذه الوثائق القيمة تبين لك السبب في جفاء الممدوحين للمتنبى .
وقد ظهر لي أيضاً من قص آثاره أنه كان إذا فارق أميراً بعد مدحه لم يعد إليه ثانية
حتى أن سيف الدولة الذي طالعت صحبته معه بعد أن فارقه واتصل بكافور
ثم هجره وعاد إلى العراق دعا المتنبى مراراً فلم يرجع إليه بل صار يمدحه عن
بعد واعتذر مرة عن الرحيل إليه بقوله :

وَمَا عَاقَى غَيْرَ قَوْلِ الْوَشَاةِ * وَإِنْ الْوَشَايَاتُ طَرَقَ الْكَذِبُ
وَتَكْثِيرَ قَوْمٍ وَتَقْلِيلَهُمْ * وَتَقْرِيبَهُمْ بَيْنَنَا وَالْخَبِيبِ (١)
يقول أخاف من الوشاة الذين حولك أن يكثرُوا من معايبي وأن يقللُوا
من فضائلي عندك ساعين بيننا بفساد ظنك بي .

ولا يبعد أن يكون السبب في عدم رجوعه إلى الممدوحين هو خوفه
منهم أن يقتلوه لما سبق له من التعريض بدمهم عند مدح غيرهم، وربما كان
ما حمله على هذا الخوف ما لقيه من أبي العشائر، فانه حين فارقه أرسل وراءه غلماناً
ليقتلوه فرماه أحدهم بسهم فأخطأه وقال خذوه وأنا غلام أبي العشائر ،
فقال المتنبى مرتجلاً وهو من محاسن قوله ، ويدل على أنه خرج من عند
أبي العشائر كارهاً :

وَمَنْتَسِبَ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَحْبَبَهُ * وَلَلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ خَفِيفٌ (٢)
فَيْسَجُ مِنْ شَوْقِي وَمَا عَنْ مَذَلَّةٍ * حَنْتُ وَلَكِنَّ الْكَرِيمَ أَلُوفُ
وَكُلُّ وَدَادٍ لَا يَدُومُ عَلَى الْأَذَى * دَوَامُ وَدَادِي لِلْحُسَيْنِ ضَعِيفُ
فَأَنْ يَكُنَّ أَلْفَعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا * فَأَفْعَالُهُ اللَّائِي سَرَرْنَ أَلُوفُ
وَنَفْسِي لَهُ نَفْسِي الْفِدَاءِ لِنَفْسِهِ * وَلَكِنَّ بَعْضَ الْمَالِكِينَ عَنِيفُ
فَأَنْ كَانَ يَبْغِي قَتْلَهَا يَكُ قَاتِلًا * بِكَفْيِهِ فَالْقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ

(١) التقريب والمحجب : نوعان من أنواع السير

(٢) الحفيف : صوت السهم عند انطلاقه من القوس

وفي هذه المناسبة أذكر حادثة وقعت للعكوك الشاعر وهو على بن جبلة نقلها الرواة وذكرها صاحب عصر المأمون وهي أنه مدح أبادلف أحد قواد المأمون بقصيدة قال فيها :

إنما الدنيا أبودلف * بين يديه ومحتضره

فاذا ولي أبو دلف * ولت الدنيا على أثره

فبلغ قوله هذا حميداً بن عبد الحميد وكان ممن يمدحهم العكوك ويأخذ جوائزهم ، فقال له ماذا أبقيت لنا بعد هذا ؟ فاضطر لأن يقول ارضاء له

إنما الدنيا حميد * وأياديه الجسام

فاذا ولي حميد * فعلى الدنيا السلام

ولكن أين هذا من ذاك . وإني لأظنه ذاب خجلاً من هذا العتاب . وقيل إن المأمون سمع بهذه القصة فقال لست لأبى أن لم أقطع لسانه أو أهدر دمه ؛ وانت ترى أن خطأ العكوك أقل بكثير مما جاء به المتنني فلا غرابة إذا فيما لقيه المتنني بسبب خطئه هذه التي مكنت حساده من نفسه فصغروا شأنه وأوصدوا دونه سبيل الراحة وصمدوا للاغراء به وأبانوا للممدوحين تعريضه بدمهم واتخذوا من ذلك سهاماً أحكموا رمايتها فأصاب قلب آماله ، حتى حرموه ثمار هذا الشعر البديع وحصروه في نفسه إلى أن صار يظن أن كل ماعداه يطلب أذاه .

ويدلك على مدى ما أصابه في ذلك قوله متضجراً من الحساد كارهاً الحياة من أجلهم :

وما ليلٌ بأطول من نهار * يظل بلحظ حسادي مشوباً (١)

وما موتٌ بأبغض من حياة * أرى لهم معي فيها نصيباً

وقوله وهو يرى أنهم يريدون موته :

ولو أني حسدت على نفيس * لجدت به لدى الجد العثور (٢)

ولكني حسدت على حياتي * وما خير الحياة بلا سرور

(١) أى يخالط هذا النهار نظري إلى حسادي (٢) يريد : البأس

وصار يحسب أنه لا يخلو مكان من عدو له أو حاسد ، فأصبح إذا زار صديقاً خفف المكث عنده خشية وجود واش يكدر صفاء عيشه وصرّح بذلك في زيارته لعلّى بن أحمد المرى فانه لم يطل المكث عنده فسأله عن السبب فقال :

لا تنكرنّ رحيلي عنك في عجل * فإني لرحيلي غير مختار
وربما فارق الأنسان مهجته * يوم الوغى غير قال خشية العار (١)
وقد بليت بحسادٍ أحاربهم * فاجعل نداك عليهم بعض أنصاري
والذى دهشت منه أن المتنبى لم يفكر في سبب كره الناس له ، ليزيل ما بينه وبينهم من
العداء ، بل صار يفكر فيما يصنعه فيهم حتى يثار لنفسه منهم وقد توسع في التفكير
حتى وهمّ بأنه سيكون يوماً ما ملكاً كهؤلاء الملوك فيحاربهم ويفعل ما يعجزون
عنه ، ثم قوى عنده هذا الخيال حتى ظن أن ذلك لا محالة واقع وزادنى دهشة
أنه كان مؤمناً بهذا الوهم وجهر به للناس فقال مهدداً من مدحهم من قصيدة
يمدح بها محمد بن عبد الله الخطيب قاضى انطاكية :

لله حال أرجيهـا وتخلفنى * وأقتضى كونهـا دهرى ويمطلنى
مدحت قوماً وإن عشنا نظمت لهم * قصائد آمن إناث الخيل والحصن (٢)
تحت العجاج قوافيها مضمرة * اذا تنوشدن لم يخطرن في أذن (٣)
فلا أحارب مدفوعاً الى جدر * ولا أصالح مغروراً على دخن (٤)
يزعم أنه ستنظم لهم قصائد أخرى غير التى مدحهم بها أبياتها كرائم الخيل
فيخضعهم (ثم يكون هو الذى يملئ شروط الصلح)
وقال من قصيدة يمدح بها على بن سيار :

(١) الوغى - الحرب وقال - كاره. يعنى أن الانسان ربما عرض نفسه للقتل في الحرب غير كاره للحياة بل خشية عار الفرار من الزحف
(٢) اقتضى كونها أى أطالبه بها (٣) الحصن بضمين جمع حصان (٤) العجاج غبار الحرب ومضمرة معدة للسباق (٥) يريد أن لا ينتظر حتى يفاجئه العدو فيحاربه في أرضه ولا يصالح صلحاً غير شريف (والدخن الفساد)

سأطلب حـقى بالقنا ومشايخ * كأنهم من طول ما التثمو امرد (١)
 يقال إذا لاقوا خفافاً إذا دعوا * كثير إذا اشتدوا قليل إذا عدوا (٢)
 يقول هذا وهو لا يملك غير نفسه ولكن خياله أوحى إليه بأنه سيكون
 له جيش هذه صفة أبطاله فلما أعياه الصبر قال :

سيصحب النصل منى مثل مضربه * وينجلي خبرى عن صمة الصمم (٣)
 لقد تصبرت حتى لآت مصطبر * فالآن أقحم حتى لات مقتحم (٤)
 لأتركن وجوه الخيل ساهمة * والحرب أقوم من ساق على قدم (٥)
 ويقول فى هذه القصيدة متعجباً من بقاء السيادة لغيره :

أيملك الملك والاسياف ظامئة * والطير جائعة لحم على وضم (٦)
 من لو رآنى ماء مات من ظمأ * ولو عرضت له فى النوم لم ينام
 ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً * ومن عصى من ملوك العرب والعجم (٧)
 ولكن بقى مكانه لم يتقدم فقال يبنى نفسه بأن يوم النصر آت لا ريب فيه .

ولا بد من يوم أغر محجل * يطول استماعى بعده للنوادر (٨)
 ولم يقف به خياله عند هذه الأمنية بل عرض لعينه جميع بلاد العرب ومناه
 بها كلها فقال من قصيدة يمدح بها على بن احمد المرى :

ضاق ذرعاً بأن اضيق به ذر * عازمانى واستكرمتنى الكرام (٩)

(١) القنا - الرماح ويريد بالمشايخ الابطال المدربين (٢) يصفهم بالثبات عند
 اللقاء واجابة الداعى (٣) النصل، السيف - ومضربه حدم والصمة. الشجاع، يقول
 سيظهر لكم أنى أشجع الشجعان (٤) لات . من الحروف المشبهة بليس : أى
 صبرت حتى فرغ صبرى والآن اقتحم كل صعب (٥) ساهمة متغيرة من آثار المعمة
 (٦) يقول : أيملك الملك من هو كاللحم الملقى على خشبة الجزار والسيوف عطشى
 لتقطيعه والطير جائعة لا كلة؟ (٧) رقيق الشفرتين السيف (٨) الاغر المحجل الفرس
 الذى بين عينيه وفى قوائمه بياض يريد أن هذا اليوم سيكون مميزاً بكثرة القتلى ويستمر
 ندب النادبات طويلاً بعده (٩) ضاق ذرعاً كناية عن قصر اليد والعجز عن الطلب

واقفاً تحت اخمصى قدر نفسى * واقفاً تحت اخمصى الأناام (١)
أقرراً الذئ فوق شرار * ومراماً أبغى وظلمى يرام (٢)
دون أن يشرق الحجاز ونجد * والعراقان بالقنا والشام (٣)
هكذا كانت آمال المتنبي تحول بينه وبين مسالمة الناس تمنيه بأنه سيكون ملكاً
على جميع بلاد العرب . فلا حاجة له بالتودد الى الناس ويصرح بهذه الامنية
في مدح الأمراء وتتناقلها الألسنة وتسير بها الركبان ، وكلما زادت شيوعاً
بين الناس زادوا في هجره وقد انتهى هذا الطور من حياته وهو اعجز ما يكون
عن بلوغ شيء مما اراد ؛ ثم لحق بسيف الدولة على بن عبدالله بن حمدان العدوى
سنة ٣٣٧ هجرية ومدحه وطالت صحبته معه فاغناه عن الاتصال بسواه

القسم الثانى من حياة المتنبي

« طور سعته »

لا شك فى أن الأيام التى قضاها المتنبي فى صحبة سيف الدولة كانت أسعد
أيام حياته . فقد كان فى رغد من العيش وسعة من الرزق ونعم لم يحظ
بمثلها من قبل ولم ير بعدها فاقة لأن سيف الدولة أجزل له العطاء . وحياه
من الخير ما صرفه عن التحول إلى سواه . وتظهر لك حاله واضحة فى قوله
حين أراد الخروج إلى الضيعة التى أقطعه إياها فى معرة النعمان وهو :
أيارامياً يصمى فؤاد مرامه * تربي عدهاء ريشها لسهامه (٤)
أسير إلى اقطاعه فى ثيابه * على طرفه من داره بحسامه (٥)
وما مطر تنبيه من البيض والقنا * وروم العبدى ها طلات غمامه (٦)

(١) يقول انى واقف تحت اقدام تقمى وجميع الناس تحت قدمى (٢) استفهام
انكارى يقول كيف يلذل القرار فوق النار (٣) يشرق يغص ، يريد أن هذه
الاماكن سوف تغص من كثرة رماح جيشه (٤) يصمى يصيب المقتل والمراد
بريشها السهامه . اموالها غنيمة له (٥) اقطاعه الارض التى اقطعه إياها والطرف بكسر
الطاء الفرس الكريم (٦) العبدى العبيد

فَتَيَّ يَهَبُ الْإِقْلِيمَ بِالْمَالِ وَالْقُرَى * وَمَنْ فِيهِ مِنْ فِرْسَانِهِ وَكِرَامِهِ
وَيَجْعَلُ مَاخُولَتَهُ مِنْ نَوَالِهِ * جَزَاءً لِمَا خُولَتْهُ مِنْ كَلَامِهِ (١)
فَلَا زَالَتِ الشَّمْسُ الَّتِي فِي سَمَائِهِ * مَطَالَعَةُ الشَّمْسِ الَّتِي فِي لثَامِهِ
وَلَا زَالَ تَجْتَازُ الْبَدُورَ بِوَجْهِهِ * فَتَعْجَبُ مِنْ نَقْصَانِهَا وَتَمَامِهِ
فَقِيهَا يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ أَصْبَحَ ذَا أَرْضٍ وَدَارٍ وَسِلَاحٍ وَعَبِيدٍ وَقَدْ أَنْسَاءَ هَذَا
الْيَسَرَ « طَبْعاً » مَا كَانَ يَضْمُرُهُ مِنَ الشَّرِّ لِلنَّاسِ حَتَّى أَنَّهُ اتَّمَسَّ لِحْسَادِهِ الْعَذْرَ
عَلَى مَا هُوَ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ فَقَالَ فِي قَصِيدَةٍ مَدَحَ بِهَا سَيْفَ الدَّوْلَةِ :
وَلِلْحِسَادِ عَذْرَ أَنْ يَشْحُوا * عَلَى نَظَرِي إِلَيْهِ وَأَنْ يَذُوبُوا (٢)
فَأَنِّي قَدْ وَصَلْتُ إِلَى مَكَانٍ * عَلَيْهِ تَحْسُدُ الْحَدَقُ الْقُلُوبُ
وَلَمْ تَعَاوِدْهُ خَوَاطِرُهُ الْأُولَى مَدَّةَ صَحْبَتِهِ لَهُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَالَ فِي قَصِيدَةٍ
يَمْدَحُهُ بِهَا :

أَهْمُ بَشَى وَاللَّيَالَى كَأَنَّهَا * تَطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ وَأَطَارِدُ
وَحِيدٌ مِنَ الْخِلَافِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ * إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ
ثُمَّ أَخَذَ يَتَفَنَّنُ فِي مَدَحِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ فَوَصَفَ جِيوشَهُ وَحُرُوبَهُ وَنَصْرَهُ بِمَا
سَتَرَاهُ فِي الْمُخْتَارِ مِنْ شَعْرِهِ .

وَلَكِنْ بَيْنَمَا هُوَ فِي بَحْبُوحَةٍ مِنَ السَّرُورِ ، فُوجِيَ بِنَكْدٍ لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابَانِهِ .
وظَهَرَ لَهُ مِنَ حَاشِيَةِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ أَعْدَاءُ ، وَمِنْ الشَّعْرَاءِ حِسَادُ ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ
نِقَادُ ، وَاسْتَمَعَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ لِقَوْلِهِمْ فِيهِ وَاسْتَطَاعُوا أَنْ يَغَيِّرُوا مَا فِي نَفْسِهِ
عَلَيْهِ حَتَّى لَاهَ مَرَّةً عَلَى مَا فِيهِ مِنْ كِبَرِيَاءٍ وَتَبَّهِ فَقَالَ الْمُتَنَبِّيُ يَمْدَحُهُ وَيَذْكُرُ ذَلِكَ :
أَفَى كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضَنْبِي شُوَيْعَرٌ * ضَعِيفٌ يَقَاوِينِي قَصِيرٌ يَطَاوِلُ (٣)

(١) خوله الشيء ملكه إياه (٢) كان المتنبي يخال ان جميع الناس حساده حتى لقد
سمى ابنه محسداً « على وزن محمد »

(٣) تحت ضنبي أي تحت إبطي : شويعر تصغير شاعر للتحقير وكان يعاصر المتنبي

لسانى بنطقى صامت منه عادل * وقلبي بصمتى ضاحك منه هازل
وما التيه طبي فيهم غير أتنى * بغيض إلى الجاهل المتعاقل (١)
وأكبر تيهى أتنى بك واثق * وأكثر مالى أتنى لك آمل
ثم زاد الجفاء بينهما فاضطر المتنبي لعتاب سيف الدولة فقال قصيدته المشهورة
التي مطلعها :

واحرّ قلباه ممن قلبه شيم * ومن بحالى وسقمى عنده سقم (٢)
وفيهما يقول لسيف الدولة :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى * فىك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة * أن تحسب الشحم فىمن شحمه ورم
وما انتفاع أخى الدنيا بناظره * إذا استوت عنده الأنوار والظلم
وفيهما يعاتبه :

يامن يعزّ علينا أن نفارقهم * وجداننا كل شىء بعدكم عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة * لو أن أمركم من أمرنا أمم (٣)
ان كان سرّكم ما قال حاسدنا * فما لجرح إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة * ان المعارف فى أهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم * ويكره الله ما تأتون والكرم
ثم عرض فيها بأنه سيفارقه الى غيره بقوله :

أرى النوى يقتضينى كل مرحلة * لا تستقل بها الوخادة الرسم (٤)
لئن تركن ضميراً عن ميامننا * ليحدثن لمن ودعتهم ندم

من الشعراء السرى الموصلى والنامى والبيغاء والواو وغيرهم كمحمد بن هاشم واخيه
سعيد وابن نباتة السعدى وكلهم يمدحون سيف الدولة ويأخذون جوائزهم (١) التيه
الكبر - طي شأنى (٢) ماء شيم - بارد (٣) أمم - قريب
(٤) الوخادة الرسم - الناقة السريعة التي تترك اخفافها أثراً فى الارض كأنها تحدث
فيها رسماً (٥) ضمير - جبل عن طريق الراحل من حلب الى الشام ، يريد أنه إذا
سار بجوار هذا الجبل قاصداً الشام فإن سيف الدولة يندم

إذا ترحلت عن قومٍ وقد قدروا * ان لا تفارقهم فالراحلون هم
وختمها بقوله :

بأى لفظٍ تقول الشعر زعنفة * تجوز عندك لا عرب ولا عجم (١)
هذا عتابك إلا أنه مقة * قد ضمن الدر إلا أنه كلم (٢)
وهذه القصيدة من أبدع ما قيل في العتاب مع كبرياء العاتب وعلو مكانة
المعاتب . وقد غضب سيف الدولة منه بسببها وأهمله مدة فاستعطفه
المتنبى بقوله :

ألا ما لسيف الدولة اليوم غاضباً * فداء الورى أمضى السيوف مضارباً
ومالى إذا ما اشتقت أبصرت دونه * تنائف لا أشتاقها وسباسبا (٣)
وقد كان يدنى مجلسى من سمائه * أحادث فيها بدرها والكواكبا
حنانيك مسئولاً وليك داعياً * وحسبى موهوباً وحسبك واهباً (٤)
أهذا جزاء الصدق إن كنت صادقاً * أهذا جزاء الكذب إن كنت كاذباً
وإن كان ذنبى كل ذنب فانه * محا الذنب كل المحو من جاء تائباً
فرضى عنه . ولكن نفس المتنبى التى عرقها لم تقبل أن يكون هو التائب
فأمسك مدة عن مدح سيف الدولة فى أوقات كان لا يقصر عنه
فى مثلها عند ذلك سأله سيف الدولة عن السبب فقال مصرحاً بما يضره من
ناحيته مع شيء من التلطف :

أرى ذلك القرب صار ازوراراً * وصار طويل الكلام اختصاراً
تركتنى اليوم فى خجلة * أموت مراراً وأحيا مراراً
أسارقك اللحظ مستحياً * وأزجر فى الخيل مهرى سراراً (٥)
وأعلم أنى إذا ما اعتذر * تإليك أراد اعتذارى اعتذراً

(١) الزعنفة — الاوباش (٢) مقة — محبة (٣) التنائف جمع تنوفة وهى
المفازة الواسعة — لاماء فيها والسباسب الفلوات (٤) حنانيك . استعطاف
(٥) أى أمشى فى عسكرك مستتراً حياء منك

كفرتُ بمكارمك الباهرات * إذا كان ذلك مني اختياراً
ولكن حمى الشعر الا القليل * همُّ حمى النوم إلا غراراً (١)
وما أنا أسقمت جسمي به * ولا أنا أضربت في القلب ناراً
فلا تلزمني ذنوب الزمان * إلى أساء وإيأى ضاراً (٢)
فابتسم سيف الدولة . وعاد المتنبي إلى مدحه . ولكن بقي في النفس شيء
كامن حتى وقعت حادثة المتنبي مع ابن خالويه النحوي في مجلس سيف الدولة
فأهاجه المتنبي فضربه ابن خالويه بمفتاح كان في يده فشججه ولم ينتصر له سيف
الدولة فغضب ورحل عنه الى دمشق وكان ذلك سنة (٣٤٦) ثم اتصل بالأستاذ
كافور الاخشيد ملك مصر فابتدأ طور رجائه (٣)

القسم الثالث من حياة المتنبي « طور رجائه »

« سميت مدة اتصال المتنبي بالأستاذ كافور طور رجائه لانه كان في أيام هذا
الطور راجياً منه أن يحقق أملاً لزمه في جميع مامر من حياته وهو أن يجعله والياً
على إحدى إمارات ملكه »
لما قصد المتنبي كافوراً عادت اليه تلك الآمال التي خبت نارها مدة اتصاله
بسيف الدولة ولم يبق عنده شك في أن كافوراً سيجعله عاملاً له على إحدى
ولايات الشام فيصير ملكاً قوياً قادراً على تنفيذ أمنيته التي صرح بها
في قوله :

« مدحت قوماً وإن عشنا نظمت لهم » الخ

وقوله — « سأطلب حتى بالقنا ومشايخ »

(١) الغرار - النوم القليل (٢) أي جلب لي هذا الضرر (٣) كان كافور من عبيد
الاخشيد صاحب مصر وارتقى الى قيادة الجيش ثم تقلد الوزارة لولديه محمود وعلى
من بعده ، وبعد موتهم بقيت مصر بلا أمير أياماً ثم بويع كافور ويشمل حكمه
مصر والشام والحجاز ، وذلك في أيام الخليفة المطيع لله العباسي ومات سنة ٣٥٧
هجريه بعد المتنبي بثلاث سنين .

وغير ذلك مما قرأته له في طور بؤسه فلما دخل مصر عرض بطلبه في أول قصيدة مدح بها كافور ، ثم استمر يكرر الطلب ويلح على الاستاذ ليأدر به حتى آخر شعر قاله فيه .

ففي أول قصيدة افتتح بها مديحه . ذكر طلبه تليحاً فقال :

أبالمسك ذا الوجه الذي كنت تائقاً * إليه وذا اليوم الذي كنت راجياً (١)

إذا كسب الناس المعالي بالندی * فانك تعطى في ندادك المعاليا (٢)

وغير كثير أن يزورك راجل * فيرجع ملكاً للعراقين واليا (٣)

يقول له ليس بكثير أن يزورك مثلي سعيّاً على قدميه فيرجع من عندك ملكاً للعراقين « وهما الكوفة والبصرة » ولم يكونا من أملاك كافور بل كانتا للخليفة العباسي وإنما ذكرهما المتنبي ليريه أن سلطانه يمتد إليهما . يغريه بذلك ؛ وكان يأمل أن يكون جواب كافور له قد وليتك . ولكنه ابتسم وأمر له بدار ومال . فأمله مدة ثم قال له في قصيدة أخرى يشرح له نفسيته ليجعله على بينة من أمره :

يارجاء العيون في كل أرض * لم يكن غير أن أراك رجائى

ولقد أفنت المفاوز خيل * قبل أن نلتقى وزادى ومائى

فأرم في ما أردت منى فانى * أسد القلب آدمى الرواء

وفؤادى من الملوك وإن كا * ن لسانى يرى من الشعراء

يقول له أنا في النظر إنسان ولى قلب أسد وفؤاد ملك ولسان شاعر . فلم

يعبأ كافور بهذه الأوصاف ، فقال له من أخرى متملقاً ومداهناً :

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم * إلى غيوث يديه والشآبيب (٤)

الى الذى تهب الدولات راحته * ولا يمن على آثار موهوب

(١) أبالمسك كنية كافور وتائقاً مشتاقاً

(٢) الندى . الجود (٣) الراجل الذى يسافر ماشياً (٤) الشآبيب . دفعات

يريد بالغيث سيف الدولة . ويقول إنه تركه وجاء إلى من يعطى الممالك ولا يمن عليها ، فابتسم له كافور وسكت عن طلبه فقال له من أخرى متدلاً ومعرضاً بأن يجرّ به ليثق من جدارته بما يريد :

- فان نلت ما أملت منك فرمما * شربت بماء يعجز الطير ورده (١)
فكن في اصطناعي محسناً كمجرب * بين لك تقريب الجواد وشدّه (٢)
إذا كنت في شك من السيف فابله * فاما تنفيه واما تعدّه (٣)
وما رغبتى في عسجد أستفيده * والسكنها في مفخر أستجده (٤)

فكرر له كافور تلك الابتسامة فضجر المتنبي وقال له من أخرى يستحثه على انجاز الأمر

- أبا المسك أرجو منك نصراً على العدى * وآمل عزاً يخضب البيض بالدم (٥)
ويوماً يغيط الحاسدين وحالة * أقيم الشقا منها مقام التنعم
قد اخترتك الاملاك فاختر لهم بنا * حديثاً وقد حكمت رأيك فاحكم (٦)
ولو كنت أدري كم حياتي قسمتها * وصيرت ثلثها انتظارك فاعلم
فلم يجد من كافور إلا تغاضياً فظن أنه لم يفقه ما أراد فقال له مصرحاً :
أبا المسك هل في الكأس فضل أنا له * فاني أغنى منذ حين وتشرب
وهبت على مقدار كفى زماننا * ونفسي على مقدار كفيك تطلب
إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية * فجودك يكسوني وشغلك يسلب (٧)
فابتسم وهز له رأسه . فظن أن ذلك وعدمته ، فقال له من أخرى متملقاً :
وان تأخر عني بعض موعده * فما تأخر آمالي ولا تهن (٨)

(١) ورود الماء . اتيانه للشرب والأخذ منه (٢) التقريب والشد - نوعان من جرى الخيل : والجواد - الفرس (٣) ابله - جربه ، تنفيه تلقيه بعيداً : وتعدّه - تجعله عدتك للقتال (٤) العسجد - الذهب : استجده . أى أجده (٥) البيض - السيوف (٦) اخترتك الاملاك - أى اخترتك من الملوك - (٧) تنط - تعلق ، ومراده تعطيني (٨) تأخر - أى تتأخر : وتهن تضعف

هو الوفى ولسكنى ذكرت له * مودة فهو ييلوها ويمتحن (١)
فلم يغن تملقه فى كافور شيئاً . فقال له من أخرى ، وهى آخر شعر مدحه
به ولم يلقه بعدها :

أرى لى بقربى منك عيناً قريرة * وان كان قرباً بالبعاد يشاب (٢)
وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا * ودون الذى أملت منك حجاب
وفى النفس حاجاتٌ وفيك فطانه * سكوتى بيان عندها وخطاب
وما شئت إلا أن أدل عواذلى * على أن راى فى هواك صواب
واعلم قوماً خالفونى وشرقوا * وغربت أنى قد ظفرت وخابوا
فلم يزد كافور على ابتسامته التى كان يقابله بها شيئاً . عند ذلك انقطع
أمل المتنبي وتمكن اليأس من نفسه . وخفت غلواؤه ، وخبّت نارهمته ،
وتبين له أن سعيه ذهب سدّى فترك مصر ، وعاد إلى العراق ، وانتهى
بذلك طور رجائه .

وهنا تتوق النفس إلى جلاء امرين هامين أولهما . معرفة السبب الذى
حمل كافوراً على حرمان المتنبي مما ألح فى طلبه مع أنه أمرٌ لا يهم كافوراً
لسعة ملكه وكثرة ولاياته وولاته . الثانى — هل أخطأ كافور فى حرمان
المتنبي من توليته إمارة بعض النواحي وأضاع الارتفاع ببقرته وهمته أم
أصاب فى ذلك وأن المتنبي لا يصلح لتولية الإمارة ؟

مررت هذا الخاطر فرجعت إلى ديوانه أتلس الحل لهُذين اللغزين فبان
لى أن المتنبي نفسه هو الذى حمل كافوراً على سوء الظن بإخلاصه كما تبين لى
انه لا يصلح لأن يكون أميراً ولما فى هذا البحث من اللذة رأيت أن أثبتته
كاملاً قبل الكلام على طور يأسه فأقول :

كيف شك كافور فى إخلاص المتنبي ؟

(١) ييلوها ويمتحن أى يجربها ويمتحنى (٣) يشاب - يمزج أى قرب

لما ظهر المتنبي زادت شهرته . وبلغت كافوراً فتاقت نفسه إلى سماع مدح هذا الشاعر العظيم فيه . فاستدعاه بعد أن فارق سيف الدولة فرحل إليه وكان ظن كافور (طبعاً) أن هذا الشاعر يمدحه ويقيم عنده ماشاء ويأخذ بجوائزه ثم يعود إلى بلاده شاكرآ ، أو تطيب له الإقامة في مصر فيبقى شاعره مادام حياً ، ولذلك أعد له داراً وغمره بالخير واستقبل مدحه . ولكن ماذا فعل المتنبي ؟

فاجأ المتنبي كافوراً بامرین ما كانا يخطران له على بال . وأمر ثالث أدهى وأمر
الأمر الأول

كان المتنبي يفتتح أكثر قصائده التي يمدح بها كافوراً بذكر سيف الدولة والشوق إليه وأسفه على فراقه وقد يعثر فيدم بها كافوراً وناهيك عن تشاؤم كافور منه عند أول قصيدة افتتح بها مدحه . وليس الاستاذ كافور بالرجل الهين الذي تمر به الحادثات عفواً ، بل هو الرجل الذي نهض بهمة وذكائه من بين الخدم حتى قاد جيش الاخشيد ، ثم جلس على عرش مصر ، ومثله لا تنطلي عليه مداهنة المتنبي ، ولا يهز مدحه المحصور بين شوق إلى سيف الدولة ، وإلحاح بطلب أمر لا تسمح به الملوك إلا لمن يعتقدون إخلاصه لهم وتقانيه في خدمتهم .

أما القصيدة التي تشاءم منها كافور فهي قول المتنبي :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا * وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى * صديقاً فأعيا أو عدواً مداجيا

بهذا المطلع افتتح المتنبي مدح كافور ينشده وعين الممدوح شاخصة إليه ، وقد احاطت به رجال دولته يستمعون مدح الشاعر الشهير لملوكهم الجليل فيقول له حسبك الداء الذي لا يشفيك منه غير الموت وإنك تمنيت هذا الموت حين لم تجد صديقاً مخلصاً ولا عدواً يستر عدواته .

انظر كيف جعل فراق سيف الدولة داءً ولقاء كافر موتاً يستشفى به من ذلك الداء . ولعمري لقد أحسن كافر بالمتنبي ووسع حلاً إذ لم يردده على عقبيه إلى الشام بعد هذه القصيدة

وقد كنت اعجب لاختيار المتنبي هذا المطلع ولكني لما بحثت عن سببه عرفت أن أمله لفراق سيف الدولة سبق أمله في كافر فأملى عليه ما قال
وانك لتدرك حزن المتنبي على فراق سيف الدولة كامناً في كل بيت من دياجة هذه القصيدة تحت ستار من السلوان فقد قال فيها مخاطباً قلبه :
حبيبتك قلبي قبل حبك من نأى * وقد كان غداراً فكن أنت وافيًا (١)
وأعلم أن البين يشكيك بعده * فلست فؤادي إن رأيتك شاكيًا (٢)
فان دموع العين غدر برها * إذا كن إثر الغادرين جواريا (٣)
أقل اشتياقاً أيها القلب ربما * رأيتك تصفى الود من ليس صافيا
خلقت ألوفاً لورجعت إلى الصبا * لفارقت شبي موجه القلب باكيًا
فانظر إلى هذا الأسف الشديد في قالب السلو والهجر - يقول لقلبه : أحبيتك يا قلبي قبل أن تحب سيف الدولة ، وهو قد غدر بي فلا تغدر بي أنت وتبقى على مودته . وإني لأشك في أن بعده سيحملك على الشكوى والشوق إليه ، فان فعلت ذلك فأنا براء منك : وأنت يادموعي إذا جريت شوقاً إليه كان ذلك منك غدرًا بي : ثم أظهر شديد توجعه بقوله : « خلقت ألوفاً » فلو قدر لي فراق هذا الشيب الذي أمقته ، لفارقت باكيًا على صحبته . فكيف لأبكي على صحبة سيف الدولة ؟ ثم خرج بعد هذا كله إلى مدح كافر . ولا شك أن كافرًا تشاء من المطلع ، وتأفف من ذكر الشوق إلى سيف الدولة ، ثم سخر من طلب المتنبي بعد ذلك .

وقال في دياجة قصيدة أخرى :

أود من الايام مالا توده وأشكو إليها بيننا وهي جنده

(١) نأى - بعد (٢) يشكيك - يحملك على الشكوى (٣) غدر جميع غدور

(٣ — أمثال المتنبي)

يباعدن حباً يجتمعن وصله * فكيف يحب يجتمعن وصده
أباخلق الدنيا حياً تديمه * فما طلي منها حياً ترده (١)
يقول : أريد من الأيام أن تجمعني بمن أحب ؛ وهي لا تريد ذلك وأشكو
اليها فراقنا ؛ وهي التي تنفذ مراده فينا . ومن أخلاقها أنها لا تبقى معي حياً
فكيف أطلب منها أن ترد لي حياً أبعدته : وبعيد أن يكون مراده في ذلك
غير سيف الدولة . وهيات أن يسمع كافور مثل هذا ثم تستريح نفسه اليه .
: ويقول لكافور من أخرى وقد أهدى اليه فرساً فتذكر عطايا سيف
الدولة من الخيل المطهمة العتاق :

فراقٌ ومن فارقت غير مذمم * وأمٌ ومن يمت خير ميمم (٢)
وما منزل اللذات عندي بمنزل * إذا لم أبجل عنده وأكرم
رحلت فكم بك بأجفان شادن * على وكم بك بأجفان ضيغم (٣)
ومارئة القرط المليح مكانه * بأجزع من رب الحسام المصمم (٤)
فلو كان ماني من حبيب مقنع * عذرت ولكن من حبيب معمم
رمى واثق رمي ومن دون ما اتقى * هوى كاسر كفى وقوسى وأسهمى
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه * وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه لقول عداته * وأصبح في ليلٍ من الشك مظلم
يقول : فارقت سيف الدولة ؛ وهو غير مذموم ، وقصدت كافوراً وهو
خير مقصود ؛ وقد رحات عن فراقته فبكى على النساء والرجال ولو كان
هذا الشوق على حبيب ذى قناع عذرت ولكن على حبيب يلبس
العمامة « وهو سيف الدولة لاشك » ويقول : رمانى وهو واثق بأن محبته
تقيه لسانى . ثم يعاتب نفسه ويذكر أن العداوة بينهما نشأت من سماعهما

(١) الحب بكسر الحاء - الحبيب (٢) مذمم - مذموم (٣) الشادن - الغزال ،
والضيغم - الاسد (٤) أى الحسناء ذات (الحلق) والشجاع ذو الصمصامة
وهى السيف القصير

لقول العداة ولا أدري كيف استطاع انشاد هذه القصيدة في حضرة كافور وحسبها من مدائح فيه .

ويقول في مدح كافور من أخرى ذا كراً سيف الدولة :
أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب
أما تغلط الايام في بأن أرى * بغيضاً تنأى أوحياً تقرب
ولله سيري ما أقل تعة * عشية شرقى الحدالى وغرب (١)
عشية أحفى الناس بي من جفوته * وأهدى الطريقين التي أتجنب (٢)
يقول لسيف الدولة : أغالب عليك شوقي فيغلبني . أما هذه الايام أن تغلط
فتبعد عني من أكره وتقرب مني من أحب . يقول هذا وهو في مجلس كافور ،
وليس أحد أقرب إليه منه . ثم يأسف على سيره في الشام بين مكان يسمى
الحدالى وجبل يسمى غرب حينما كان أكثر الناس حفاوة به من جفاه وهو
سيف الدولة ، وأهدى الطريقين التي تجنبها وهي التي توصله إلى سيف الدولة
وطبعاً سلك اضلها وهي الطريق التي أوصلته إلى كافور . وقد ذم كافور في
هذه الايات كما ترى ثم انتقل بعدها إلى مدحه - وأنا لا أشك في أن المتنبي كان
يعتقد في كافور أنه لا يدرك ما يقوله فيه ويدلك على ذلك قوله في ذمه بعد فراقه
ولولا فضول الناس جئتكم مادحاً * بما كنت في سرى بهلك هاجياً
فأصبحت مسروراً بما أنا منشد * وإن كان بالانشاد هجوك غالياً
أي لولا من حولك يفهمونك بأنى أهجوك لهجوتك في انشادي وكان ذلك
يسرك لأنك لا تميز بين المدح والهجاء
وأذ كر أن ابن خلكان ذكر في ترجمة المتنبي انه قال : كنت اذا أنشدت كافوراً
ابتسم لي حتى قلت

(١) التثنية - التوقف عن السير ، الحدالى - موضع بالشام ، غرب . جبل - أي
مأسر سيري بين هذين المكانين . (٢) أحفى - مبالغة في الحفاوة وهي الاكرام
والملاطفة .

ولما صار ود الناس خبياً * جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه * لعلنى أنه بعض الأنام
فلم أره ابتسم بعدها حتى افترقنا . وهذا يدل على عكس ما فهمه المتنبي فيه

الامر الثاني

الحاح المتنبي الشديد على كافور ان يجعله أميراً على احدى ولايات ملكه
مكرراً طلبه في جميع القصائد التي مدحه بها كما رأيت في طور رجائه

الامر الثالث

كان المتنبي يحتقر كافوراً . وقد هجاه قبل ان ينقطع امله منه وكان يهجو
بين الناس ثم يدخل عليه فيمدحه أما بعد قطع امله فلم يذمه الا في أربع قصائد
الأولى : عند خروجه من مصر في قوله

« عيدٌ بأية حال عدت يا عيد »

والثانية : لما بلغ الكوفة ووصف بها طريقه من مصر اليها وأولها

« ألا كل ماشية الخيزلى »

والثالثة بعد ذلك وأولها

(قطعت بسيرى كل بهماء مفزع) (١)

والرابعة وأولها

(افيقا خمارا لهم بغضنى الخمر)

ونظمهما بمدينة واسط ووجدت مسوداتهما في رحلة بعد قتله

ولا شك أن كافوراً كانت له عيون تراقب المتنبي وآذان تسمع ما يقوله
فيه فتبلغه اليه وكافور كان يغض الطرف عن عقابه لأنه من الشعراء مكتفياً
بعقاب الحرمان وحسرة الحية

وهذه الأسباب هي التي حملت كافوراً على الشك في اخلاص المتنبي له
وكانت سبب حرمانه مما اراد

(١) البهائم المفازة التي لاماء فيها ومفزع مخيفه

الامر الثاني

هل كان المتنبي أهلاً للولاية أم لا ؟
إن المتنبي يرى أن المجد لا ينال بالتمني : بل لابد للحصول عليه من وسائل يتصف بها طالبه ، وقد ذكرها مفصلة في قصيدة مدح بها علياً بن ابراهيم وهي قوله :

من طلب المجد فليكن كعلي * يهب الألف وهو يتسم
ويطعن الخيل كل نافذة * ليس له من وحاتها ألم (١)
ويعرف الأمر قبل موقعه * فما له بعد فعله ندم
والامر والنهي والسلاح والبيض له والعيد والحشم (٢)
والسطوات التي سمعت بها * تكاد منها الجبال تنقسم
يرعيك سمعاً فيه استماع إلى الدا * عى وفيه عن الخناصم
في هذه الأيات يحتم المتنبي على طالب المجد « السيادة والملك » أن يتصف
بمحصول سبع :

أولها - الجود : وذلك ليلف الناس حوله ابتغاء خيره .
ثانيها - الشجاعة : ليؤلف قوة من طالبي رفته يقاتل بها أعداءه .
ثالثها - الحزم : حتى لا يفعل ما يوجب ندمه .
رابعها - العصية : ليكون في قوة من قومه يتأصرونه ويشدون أزره .
خامسها - الجرأة : لأن اقتحامه عظام الأمور يملأ القلوب من هيئته ومحبه
سادسها - النجدة : لتكثر صنائعه وأياديه على الناس فيفدونه بأنفسهم .
سابعها - العفة : لأن الدناءة تضعف هيئته ، وتسقط مروءته ، كما أن
استماعه للوشاية يوسع الطريق للمفسدين فيكثر بذلك الناقون عليه .
ويقول ان ممدوحه اتصف بها جيفها فهو سيد بحق . والمتنبي نفسه طلب

(١) الوطاء - السرعة أى من سرعة نفاذ الطعنة في العدو لا يشعر بالمها حتى يقع قتيلاً
(٢) السلاح - الخيل واحداً ساهب والبيض - السيوف ، والحشم - الاتباع

السيادة وأقى حياته بين الأمل والرجاء ، فهل اجتمعت فيه هذه السجايا ؟ نحن لا نطالبه بأكثر مما اشترط .

بحث عنها في شعره فلم أجده في أكثرها نصيباً وإليك الدليل :

أولاً

- هل كان المتنبي جواداً كريماً ؟

وصف المتنبي نفسه بالعلم ، والفصاحة ، والشجاعة كقوله :

إذا صلت لم أترك مصالاً لفاتك * وإن قلت لم أترك مقالاً لعالم
وقوله :

مانال أهل الجاهلية كلهم * شعري ولا سمعت بسحري بابل
وقد مرتبك كثيرٌ من قوله عن نفسه في الكلام على بؤسه . ولكنه لم يصفها بالكرم إلاّ عرضاً في بيتين قالهما وهو في أشد أيامه بؤساً وحينما كان يبحث عن رزقه فيعجزه .

أحدهما قوله :

كفاني الذم أتى رجلٌ * أكرم مالٍ ملكته الكرم
والثاني قوله :

« أنا ترب السدى » ورب القوافي * وسهام العدى وكيد الحسود
وهما على ما فهمنا من مخالفة الواقع لأنهما صدرا منه وقت أن كان يقول :
لم الليالى التى أخنت على جدتى * برقة الحال واعذرني ولا تلم
فقد هشمهما بيت لوقاله : وموائده ممدودة على قارعة الطريق لعدّ بخيلا
وهو قوله :

وربما أشهد الطعام معي * من لا يساوى الخبز الذى أكله
وذلك لأن الكريم يأنف من ذكر الطعام ، وكان الحجاج يقول
لجلسائه : « جنبوا مجالسنا ذكر الطعام : فاني أكره الرجل أن يكون وصافاً
لبطنه » وإنما يفتخر عادةً بذلك البخلاء ، وقد عرض المتنبي بذكر الطعام
أيضاً في هجاء كافور بقوله :

جوعان يأكل من زادي ويمسكني * كيما يقال عظيم القدر مقصود
وبقوله :

لو كان ذا الآكل أزوادنا * ضيفاً لاوسعناه إحساناً
ومحال أن يأكل كافور ملك مصر من زاد المتنبي « ضيفه » وإنما لبخل
المتنبي كان يستعظم أمر الطعام فيذكره افتخاراً وتبكيّاً . ومن هذا تعلم
أن المتنبي لم يكن من الأجواد .

ثانياً

هل كان المتنبي شجاعاً سميذعاً ؟
وصف المتنبي نفسه بالشجاعة في كثير من شعره ، وكانت عماد نخره
كقوله لمن حذرته عاقبة تهوره :

أمثلي تأخذ النكبات منه * ويجزع من ملاقة الحمام
ولو برز الزمان إلى شخصاً * لحفف شعر مفرقه حسامي
ولا بلغت مشيئتها الليالي * ولا سارت وفي يدها زمامي
إذا ملئت عيون الخيل مني * فويل في التيقظ والمنام
وكنت أردت أن أتخذ من قوله دليلاً على شجاعته فوجدت في شعره
ما يخرج من مصاف الأبطال الذين ينطبق عليهم وصفه لنفسه وها أنا أذكر
لك أربعة مواقف له جبن فيها كلها :

الأول : سأله سيف الدولة أن يصحبه في حرب ينصر بها أخاه فاعتذر
بشوقه إلى العيال وقال من قصيدة مدحه بها :

ان الذي خلّفت خلفي ضائع * إلى على قلقي عليه خيار
وإذا صحبت فكل ماء مشرب * لولا العيال وكل أرض دار
اذن الأمير بأن أعود إليهم * صلة تسير بذكرها الأشعار
وهذا الاعتذار تأباه نفس الشجاع الباسل .

وقد رأيت من أمره أن أكثر وقائع سيف الدولة كانت توصف له فكان لذكائه
المفرط يصفها كأنه خاض المعركة ، ولم يذكر عنه أنه خاض حرباً فإيلي فيها .

الثاني : أنه سمع في بعض أسفاره في البادية زئير أسد ، وكان ذلك ليلاً ، في مكان يسمى الفراديس ، فقال يصف موقفه شاكاً في مصيره :
اجارك يا أسد الفراديس مكرم * فتسكن نفس أم مهان فسلم
ورائي وقدامي عداة كثيرة * أحاذر من لصٍّ ومنك ومنهم
ولم اسمع بأن الشجاع يخاف من الأسد ، وقد رأيت له أن بدر بن عمار خرج الى أسد فهرب منه ؛ ثم صادف أسداً آخر يأكل من بقرة اقترسها فهاجه عنها فوثب الأسد الى كفل فرسه فأعجله عن استلال السيف فضربه بدر بالسوط فموى فقال المتنبي في قصيدة يمدحه بها :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه * لمن ادخرت الصارم المصقولا
فهذه هي عادة الأبطال مع الاسود ، فكيف نعد المتنبي شجاعاً وهو يخاف من الأسد ومن اللص ايضاً .

الثالث — أنه كتب للأمير وهو في الاعتقال :
يبدى أيها الأمير الأريب * لا شيء إلا لاني غريب
أو لأمم لها إذا ذكرتني * دم قلب في دمع عين يذوب
يقول له : خذ يدي لاني غريب ، ولأن أمتي تبكي كلما ذكرتني . والذي أعرفه أن الشجاع إذا قطع بالسيوف تأني نفسه أن يجعل غربته وبكاء أمه على فراقه مما يشفع له عند الأمير ليفك اعتقاله .

الرابع — أنه هرب عند لقاء فاتك الأسدي . فلما عبره غلامه عاد خشية العار فقتل . ولا أخال من يحاول الهرب من مثل فاتك ، ثم يصرع بين يديه يسمى شجاعاً هذا ، وقد ثبت لي ايضاً من بخل المتنبي أنه لم يكن شجاعاً لأن الكرم والشجاعة سجتان متلازمتان . ولأن جميع الأبطال الذين حفظ التاريخ ذكرهم كانوا من الأجواد . وهذا هو مذهب المتنبي نفسه ، فانه لم يصف رجلاً بالشجاعة إلا وقرن بها الكرم ، ولا مدح أحداً بالكرم إلا وأردفه بالشجاعة ، وذلك لا يمانه بانهما خلتان لا تنفك إحداها عن الأخرى . وقد راجعت شعره في نفسه فرأيت أنه افتخر بالشجاعة والبطش وتهديد الناس

والازدراء بحوادث الدهر ولم ينسب مع شيء من ذلك لنفسه كرمأ أو افتخر
بجود . فعلمت أنه إنما وصف نفسه بما وصفها ليرهب الذين يخالهم من أعدائه .
وإني لنفاسة هذا البحث ، سأذكر لك جميع ما قاله في هذا المعنى ، لتعرف
مقدرة المتنبي في القول ، ولتقر بأن الدهر كان راوية شعره بحق
قال في شجاع بن محمد الطائي :

أعطى فقلت لجوده ما يقتني * وسطا فقلت لسيفه ما يولد (١)
ففي صدر البيت وصفه بمنتهى الكرم ، وفي الشطر الثاني منتهى الشجاعة
وقال في محمد بن زريق :

إن حلّ فارقت الخزائن ماله * أوسار فارقت الجسوم الروسا (٢)
يعنى إن أقام فرق أمواله ، وإن غزا أكثر من القتلى .
وفي علي بن حمدان المري :

حسن في عيون أعدائه أقبح من ضيفه رآته السوام (٣)
أى هو حسن ، ولكنه في عيون أعدائه أقبح من ضيفه في عيون إبله وغنمه ،
لأنها إذا رأت ضيفاً أيقنت بأنها مذبوحة له وهذا وصف بالكرم . وكذلك
أعداؤه إذا رأوه أيقنوا بأنهم مقتولون ، وهذا وصف بالشجاعة
وفي عبدالله بن يحيى :

إلى ليث حرب يلحم الليث سيفه * وبحرندى في موجه البحر يغرق (٤)
وفي الحسن بن اسحق :

قى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى * يرتجى الحيامنه وتخشى الصواعق (٥)
وفيه أيضاً :

(١) يقتني - يدخر ، وسطا - غزا ، أى ما يدخره الأعداء سيأخذونه منهم ويجودونه ،
وما يلدونه يكون لسيفه (٢) الجسوم - الأجسام (٣) السوام جمع سائمة ، وهى الماشية التى
ترك لتذبح للأضياف (٤) يلحم أى يجعله لحماً (٥) الجون - القائم فانه يكون شديد
المطر مع نزول الصواعق ، ومثل هذا لا يشاهد عادة فى جو مصر

كَأَنَّكَ فِي الْإِعْطَاءِ لِلْمَالِ مَبْغُضٌ * وَفِي كُلِّ حَرْبٍ لِلْنِّيَّةِ عَاشِقٌ
وَفِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْعُلُوَّى :

وَأَرْهَبَ حَتَّى لَوْ تَأَمَّلَ دَرْعَهُ * جَرَّتْ جَزَعًا مِنْ غَيْرِ نَارٍ وَلَا فُحْمٍ
وَجَادَ فَلَوْلَا جُودُهُ غَيْرُ شَارِبٍ * لَقَلَّتْ كَرِيمُ هَيْجَتِهِ ابْنَةُ الْكُرْمِ
أَيُّ أَنَّهُ يَخِيفُ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَلَوْ نَظَرَ إِلَى دَرْعِهِ مُتَأَمِّلًا وَهِيَ مِنَ الْفُؤُلَاذِ
الْصَّلْبِ لَذَابَتْ خَوْفًا مِنْهُ ، وَقَدْ جَادَ جُودُ الثَّمَلِ فَأَعْطَى ؛ عَطَاءً مَنْ لَا يَعْرِفُ
لَهَا فِي يَدَيْهِ قِيَمَةً .

وَفِي مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ وَقَوْمِهِ :

هُمْ الْمُحْسِنُونَ الْكَرَّ فِي حُومَةِ الْوُغَى * وَأَحْسَنَ مِنْهُمْ كَرُهُمُ فِي الْمَكَارِمِ (١)
وَفِي طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ :

فَتَى عَلِمَتْهُ نَفْسُهُ وَجُدُودُهُ * قِرَاعَ الْعَوَالِي وَابْتِدَالَ الرِّغَائِبِ (٢)
وَفِي أَبِي الْعَشَائِرِ :

مَا يَجِيلُ الطَّرْفَ إِلَّا حَمْدَتُهُ * جَهْدُهَا الْأَيْدَى وَذِمَّتُهُ الرِّقَابِ (٣)
مَا بِهِ قَتْلُ أَعَادِيهِ وَلَكِنْ * يَتَّقِي إِخْلَافَ مَا تَرْجُو الذَّنَابِ
فَلَهُ هَيْبَةٌ مِنْ لَا يَرْتَجَى * وَلَهُ جُودٌ مُرْجَى لَا يَهَابُ
وَفِي الْمُغِيثِ بْنِ عَلِيٍّ :

عَمْرُ الْعَدُوِّ إِذَا لَاقَاهُ فِي رَهَجٍ * أَقْلُ مِنْ عَمْرِ مَا يَحْوِي إِذَا وَهَبَا (٤)
تَوَقَّهْ فَمَتَى مَا شِئْتَ تَبْلُوهُ * فَكُنْ مُعَادِيَهُ أَوْ كُنْ لَهُ نَشِيبَا (٥)
تَحَلَّوْا مَذَاقَهُ حَتَّى إِذَا غَضِبَا * حَالَاتُ فَلَوْ قَطَرَتْ فِي الْمَاءِ مَاشِرِبَا
وَلَا يَرُدُّ بِفِيهِ كَفٌّ سَائِلُهُ * عَنْ نَفْسِهِ وَيَرُدُّ الْجَحْفَلَ اللَّجْبَا (٦)
وَفِي عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سَنَانٍ :

أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ الْهُوجُ بِطَشًا * وَأَسْرَعُ فِي النَّدَى مِنْهَا هُبُوبَا (٧)

(١) الكر - الهجوم ، والوغي - الحرب (٢) العوالي - الرماح (٣) وصفه في كل بيت منها بالكرم والشجاعة كما ترى (٤) الرهج - الغبار ومراده الحرب (٥) النشب المال يريد قتل عدوه ويفرق أمواله (٦) الجحفل - اللجب هو الجيش الذي يسمع منه دوى أصوات الأبطال وصهيل الخيل لكثرة (٧) الرياح - الهوج الزوابع

وفى على بن منصور :

ملك سنان قناته وبناته * يتباريان دماً وعرفاً ساكبا (١)

هذا الذى أفى النصارى مواهباً * وعداه قتلاً والزمان تجاربا (٢)

وفى أحمد بن عمران :

ليس التعجب من مواهب ماله * بل من سلامتها إلى أوقاتها

عجباً له حفظ العنان بأتمل * ما حفظها الأشياء من عاداتها

وفى عبد الواحد بن العباس :

متبسماً لعفاته عن واضح * تغشى لوامعه البروق اللعا

متكشفاً لعداته عن سطوة * لوحك منكبها السماء لزعزا

نفس لها خلق الزمان لأنه * مفنى النفوس مفرقاً ماجعا

ويد لها كرم الغمام لأنه * يسقى العمارة والمكان البلقعا

وفى سيف الدولة :

تالله ما علم امرؤ لولا كم * كيف السخاء وكيف ضرب الهام (٣)

وفى كافور :

كرم فى شجاعة وذكاء * فى بهاء وقدرة فى وفاء

وفى أبى شجاع فاتك :

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والاقدام قتال

أنظر كيف أقام السيادة هنا على ركنين اثنين وهما « الشجاعة والكرم »

وقال فى الأمير دلير :

ومادام دلير يهز حسامه * فلاناب فى الدنيا الليث ولا شبل (٤)

ومادام دلير يقلب كفه * فلا خلق من دعوى المكارم فى حل

فهذا قول المتنبي فى الشجعان قرن فى مدحهم الشجاعة بالكرم وكذلك

قرن أيضاً البخل بالجبن تأكيداً على أن الشجاع لا يكون إلا كريماً .

(١) السنان - نصل الرمح والبنان الاصبع يريد الكف (٢) النصارى الذهب

(٣) الهام - الرؤوس (٤) الليث - الاسد والشبل - ولده

قال في قصيدة مدح بها عبد الواحد بن العباس :
بنفسى الخيال الزائرى بعد هَجَّة * وقولته لى بعدنا الغمض تطعم
سلام فلولا البخل والجبن عنده * لقلت أبو حفص علينا المسلم
وقال في بدر بن عمار ، وقد ضربت له خيمة على الطريق فجلس فيها
يعطى الناس :

قالوا ألم تكفه سماحته * حتى بنى بيته على الطرق
فقلت إن الفقى شجاعته * تريه فى الشح صورة الفرق (١)
فاعترف بأن الشجاع يرى صورة الخوف فى البخل .
وفى سيف الدولة :

هو الشجاع يعد البخل من جبن * هو الجواد يعد الجبن من بخل
وفيه منها :

من تغلب الغالبين الناس منصبه * ومن عدى أعادى الجبن والبخل
فملازمة المتنبي لذكر الكرم مع الشجاعة فى جميع مدائحه ؛ وذكر البخل مع
الجبن ؛ دليل على أن الشجاعة والكرم ندان لا يفترقان . وذلك بديهى ، لأن
الشجاعة بذل النفس وهى أعلى وأعز من المال فكيف يبخل بماله من يجود بمهجته ؟
فتبين لنا مما تقدم أن المتنبي ليس بالشجاع الذى ينال السيادة بشجاعته

ثالثاً

هل كان المتنبي حازماً ؟

إن ماجهر به المتنبي من العداة للناس فى الوقت الذى كان فيه محتاجاً الى
ودّهم ؛ وما ألح به على كافور من الرجاء ليكون عاملاً له على احدى الولايات
فى كل قصائده التى مدحه بها حتى حمّله على الشك فى اخلاصه ؛ كل ذلك
يدل على خلوه من الحزم وفضلاً عن هذا فان المتنبي قد ندم مراراً على أمور
صدرت منه . واذا تأملت قوله :

لحالة ذى الدنيا منا خالراكب * فكل بعيدا لهم فيها معذب

وقوله :

شر البلاد بلاد لا صديق بها * وشر ما يكسب الانسان ما يصم

وقوله :

واذا كانت النفوس كبارا * تعبت في مرادها الأجسام

وقوله :

وما الدهر أهلا أن تؤمل عنده * حياة وأن تشتاق فيه الى النسل

وجدتها أسفا على الحق من الندم على تلك الحملات التي كان يحملها على الناس ؛
فكانت سببا لكثير أعدائه وحجابا بينه وبين صفائه ، ومن أقوى موانع
رجائه ؛ وليس أدل على خلوه من الحزم من قصيدته التي قالها في مصر حينما
بلغه بأن قوما نعوه في مجلس سيف الدولة ، وهي قوله :

بم التعلل لا أهل ولا وطن * ولا نديم ولا كاس ولا سكن

وفيه يقول :

رأيتكم لا يصون العرض جاركم * ولا يدرك على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل * وحظ كل محب منكم ضغن (١)
وتغضبون على من نال رفقكم * حتى يعاقبه التنغيص والمن (٢)
سهرت بعد رحلي وحشة لكم * ثم استمر مريرى وارعوى الوسن (٣)
وإن بليت بود مثل ودكم * فانتى بفراق مثله قن (٤)
فقد هجابها سيف الدولة ونسبه لسوء الجوار وأنه يمن على من يحسن
اليه . ثم لما غضب من كافور وندم ندامة الكسعى ، وكتب لسيف الدولة
يكفر عن هذه الخطيئة بقوله :

(١) ضغن جمع ضغينة وهي الخقد (٢) المن - التذكير بالمعطاء ويذم لأنه
يؤذى السائل (٣) يريد بقوله ارعوى الوسن أى طاب له النوم وذهب الارق
(٤) قن أى جدير

فارقتكم فاذا ما كان عندكم * قبل الفراق أذى بعد الفراق يد (١)
إذا تذكرت ما بيني وبينكم * أعان قلبي على الشوق الذي أجد
ولكن لات حين مندم فقد كان خجل المتنبي من سيف الدولة بسبب هذه
القصيدة أكبر مانع من رحيله اليه .

وقد اعترف المتنبي على نفسه بأنه غير حازم في قوله يذم كافوراً ويظهر
ندمه على فراق سيف الدولة :

عثرت بسيرى نحو مصر فلا لعا * بها ولعا بالسير عنها ولا عثرا (٢)
وفارقت خير الناس قاصد شرم * وأكرمهم طرأ لا لأمهم طرأ
فعاقبني المحصى بالغدر جازياً * لأن رحيلي كان عن حلب غدراً
وما كنت الا فائل الرأي لم أعن

بحزم ولا استصجبت في وجهتي حيزاً (٣)

وليس وراء هذا دليل على ان المتنبي لم يكن حازماً

رابعاً

هل كان المتنبي في عصبية ؟

لم يكن المتنبي في عصبية ذات شكيمة ، ولم يكن في قومه على ضعف شأنهم
مطاعاً ، ولم يرفعهم بشعره كما فعل غيره .

نعم قال فيهم :

وانى لمن قوم كأني نفوسهم * بها أنف أن تسكن اللحم والعظا
ولكن هذا وصف لهم بشدة الكبرياء فقط وليس دليلاً على مجدهم . وفوق
ذلك فقد أنكرهم في مواطن كثيرة ، كقوله :

ولست بقانع من كل فضل * بأن أعزى إلى جد همام

(١) يقول ان ما كنت أحسبه منكم أذى صرت أحسبه كرمًا وصنيعة بقياسه
الى معاملة غيركم (٢) فلان لعا - أى فلا كرامة (٣) فائل الرأي سخيفه حجراً
أى عقلا قال تعالى (لذي حجر)

وقوله لمن عاب نسبه

انا ابن من بعضه يفوق أبا البا * حث والنجل بعض من نجله (١)

وانما يذكر الجدود لهم * من نفروه وأنفدوا حيله (٢)

نغراً لعضب أروح مشتمله * وسمهرى أروح معتقله (٣)

وقوله لمن جهل نسبه :

جهلوني وان عمرت قليلاً * نسبتني لهم صدور الرماح

لا بقومي شرفت بل شرفواني * وبنفسي نخرت لا بجدودي

وان عمرت جعلت الحرب والدة * والسمهرى أخاً والمشرقي أباً

وقوله يرثي أمه :

ولو لم تكوني بنتاً كرم والد * لكان أباك الضخم كونك لي أما

فأبان لنا بهذا أنه غير مخول أيضاً .

ومن هذا تعلم أن المتنبي لم يكن ذاعصية يؤبه لها، ولم ينتسب إلا إلى نفسه وسلاحه

وأنه كان وحيداً بين قومه كما يقول :

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني * ان النفيس غريب أينما كانا

خامساً

هل كان المتنبي جريئاً ؟

نعم كان المتنبي جريئاً بلسانه ، وأما بفعله فليس له إلا ادعاء النبوة وسرعان

ماخذل وانقض الناس من حوله .

سادساً

هل كان المتنبي من ذوي النجدة ؟

(١) يقول انا ابن من ابنه خير من الباحث عن نسي يريد الافتخار بنفسه فقط

(٢) نفروه — قهروه بالفخر (٣) العضب السيف

كلا . بل كان أشد الناس كرهاً للناس . كما رأيت في طور بؤسه . ومن كان
هذا ظنه بهم فلا يرجى منه النجدة لأحد منهم
سابعاً

هل كان المتنبي عفيفاً ؟
نعم - كانت للمتنبي نفس أية تقتضيها كبرياؤه . وله في العفة كلمات ليس
لغيره مثلها . وهو أول من ثار لنفسه من الهوى بقوله :
وقد استقدت من الهوى وأذقته * من عفتي ما ذقت من بلباله (١)
وأول من عف يقظة وحلماً ، بقوله عن نفسه :
يرد يداً عن ثوبها وهو قادر * ويعصى الهوى في طيفها وهو راقد (٢)
ومن فرائده في العفة قوله :

وترى المروءة والفتوة والأبو * في كل مليحة ضرّاتها
هن الثلاث المانعاني لذتي * في خلوتي لا الخوف من تبعاتها (٣)
ومن محاسنه فيها

تقولين ما في الناس مثلك عاشق * جدى مثل من أحبته تجدى مثل (٤)
محب كنى بالبيض عن مرهفاته * وبالحسن في أجسامهن عن الصقل (٥)
وبالسمر عن سمر القنا غير أنتى * جناها أحبائي وأطرافها رسل (٦)
عدمت فؤاداً لم تبت فيه فضلة * لغير الثنايا الغر والحدق النجل
ولكن العفة وحدها لا تكفي لما أراد

فما تقدم نقرباً أن فراسة كافور صدقت في المتنبي . وانه ليس أهلاً للولاية

(١) استقدت من القود وهو قتل النفس بالنفس ، واللبال اختلاط العقل (٢)
يريد بثوبها جسمها وطيفها خيالها في النوم (٣) تبعاتها ما يترتب عليها من الأثم
(٤) (جدى) فعل امر من وجد (٥) المرهفات السيوف (٦) سمر القنا الرماح
(٧) الثنايا الغر البيضاء . والحدق النجل العيون الواسعة يقول عدمت القلب
الذى لا شغل له بغير الحب

القسم الرابع من حياة المتنبي

طور يأسه

لما استيأس المتنبي من كافور؛ صدمت الحية آماله صدمةً بدتها، وسرى أثرها إلى أخلاقه فبدلها، وغشيه في بدء أمره شيء من النسك فقال تلك القطعة البديعة التي تعد من فرائد الحكمة وهي :

- ✓ صحب الناس قبلنا ذا الزمانا * وعناهم من شأنه ما عانا (١)
وتولوا بغصة كلهم منه وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه ولكن تكدر الاحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر حتى أعانه من أعانا (٢)
كلما أنبت الزمان قناة * ركب المرء في القناة سنانا (٣)
ومراد النفوس أصغر من أن * تتعادي فيه وأن تتفانى (٤)
غير أن الفتى يلاقى المنايا * كالحات ولا يلاقى الهوانا (٥)
ولو أن الحياة تبقى لحي * لعددنا أضلنا الشجعانا (٦)
كل ما لم يكن من الصعب في النفس سهل فيها إذا هو كانا (٧)

- (١) عناهم - أي شغلهم ما شغلنا من حب الدنيا (٢) ريب الدهر - حوادثه يقول :
لم يكتف الإنسان بحوادث الدهر التي تصيب أخاه بل أعان الدهر على أخيه الإنسان
(٣) القناة الرمح يقول : كلما نبت رمح ركب الإنسان فيه نصلا ليقتل به أخاه الإنسان
(٤) يريد أن مطلوب النفوس من الدنيا أحقر من الوسائل التي نعدّها له وهي تقاناتنا
وتعاديها (٥) المنايا - الموت ، كالحات أي سوداء ، وهو كناية عن شدتها ويريد بالفتى
كريم النفس فإنه يفضل الموت عن المذلة (٦) وذلك لأن الشجعان عرضة للموت
أكثر من سواهم (٧) يقول : كل شيء قبل وقوعه يصعب على النفس ، وبعد وقوعه
يسهل ، لذلك ترى من يتوقع موت مريضه يكون في غاية الجزع والقلق ولكن
بعد الموت يذهب الحزن شيئاً فشيئاً حتى يعود الحزين إلى حالة سروره ولذلك
(٤ - أمثال المتنبي)

ولكن لم يدم نسكه إلا قليلاً حتى بدت عليه الحسرة ، وهزه الالم هزة عيفةً فارتدَّ يهجوا كافوراً إذا خلا بنفسه ، ويمدحه إذا دخل عليه ، ثم هجره بعد ذلك . وعاد الى العراق .

وإنك لترى الحسرة بارزةً في القصيدة التي قالها عند خروجه من مصر : وقد احاط الالم بكل كلمة من كلماتها ؛ وكان ذلك في يوم عيد ، والناس منهمكون في سرورهم وهي :

عيدٌ بأية حال عدت يا عيد * بما مضى ، أم لأمر منك تجديد
أما الأجنة فالليداء دونهم * فليت دونك ييد دونها ييد (١)

ومنها :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدى * شيئاً تقيمه عين ولا جيد (٢)
ياسافيٍّ أخمرٌ في كؤوسكما * أم في كؤوسكما هم وتسبيد
أصخرة أنا ؟ مالى لا تحركنى * هذى المدام ولا هذى الأغاريد (٣)
إذا أردت كميت اللون صافية * وجدتها وحبيب النفس مفقود (٤)
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه * أنى بما أنا شاك منه محسود (٥)
وان من يسمع مدح المتنبي في كافور يستبعد أن يقدم على هجائه ، ولكن المتنبي بعد خيبة أمله أصبح لا يبالى بشيء ؛ وإنك لتعجب حين ترى انه قابل أكثر المعاني التي مدحه بها بمثلها هجاءً وهي قوة في إرادة المتنبي قد انفردها . فمن ذلك قوله مؤملاً عند لقائه : يصف الخيل التي أوصلته اليه :

تجاذب فرسان الصباح أعتة * كأن على الاعناق منها أفاعيا (٦)
بعزم يسير الجسم في السرج راكباً * به ويسير القلب في الجسم ماشيا (٧)

(١) دونهم - أى يائى بينهم . (٢) تقيمه - تشغله ، الجيد - العنق ، يريد بذلك أن همه صرفه عن حب الحسان . (٣) الأغاريد - الاغانى . (٤) الكميتة - حمرة في سواد يقال : خمر كميت لذات هذا اللون . يريد انه لا يتم له سرور بشيء (٥) يقول أعجب ما لقيت من هذه الدنيا أنى أحسد على ما أشكوه منه (وهو قربه من كافور) . (٦) الأعتة - ارسان الخيل ، وراه هنا ذات الخيل . والافاعى - الحيات شبه بها الأعتة . (٧) أى كان وهو راكب يخفق قلبه من الفرح سروراً ببقاء كافور

قوا صد كافرٍ توارك غيره * ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عدين زمانه * وخات يياضاً خافها ومآقيا (١)
نجوز عليها المحسنين الى الذي * نرى عنده إحسانهم والامانيا
ثم هجاء من هذا البحر والقافية بقوله :

أريك الرضى لو أخفت النفس خافيا * وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا
أميناً واخلاقاً وغدراً وخسة * وجنأ أشخصاً لحتلى أم مخازيا (٢)
تظن ابتساماتى رجاء وغبطة * وما أنا إلا ضاحك من رجائيا
وقال فى مدحه زاعماً أنه كان يتقلب فى الأصلاب إلى عصره رجاء لقائه :
فتى مأسرينا فى ظهور جدودنا * إلى عصره إلا نرجى التلاقيا
وفى هذا المعنى :

فلولم تكن فى مصر ماسرت نحوها * بقباب المشوق المستهام المقيم
ثم هجاء بعكس ذلك قائلاً :
ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن * يسيئنى فيه عبد وهو محمود
وكان يكنى فى مدحه بأبى المسك ويقول فيه :
وبمسك يكنى به ليس بالمسك ولكن أريج النشاء (٣)
وجعله أيضاً أبا الطيب كله بقوله :

أبا كل طيب لا أبا بالمسك وحده * وكل سحاب لا أخص الغواديا
بعد ذلك هجاء بضده ، فعاتب الدهر على موت فاتك (٤) ، وابقاء كافور
وهو أنتن رائحة :

أبقيت أكذب كاذب أبقيته * وأخذت أصدق من يقول ويسمع

(١) شبهه لسواده بإنسان العين ، وهو أنف من بياضها لأنه آلة الإبصار .
(٢) المين - الكذب . ويريد بالاختلاف إختلاف الوعد . (٣) الأريج . رائحة المسك
والطيب . (٤) فاتك - كان أميراً للفيوم مدحه المتنبي فأعطاه ألف دينار ومات
فاتك والمتنبي فى مصر فرثاه بقصيدة جيدة وهذان البيتان منها

وتركت أنتن ريحة مذمومة * وسلبت أطيّب ريحة تتضوع
وقال في ذمه وذم قومه بالنتن
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم * إلا وفي يده من نتنها عود
وقال في هذا المعنى يذمه :

وقد ضل قوم بأصنامهم * وأما بزقّ رياحٍ فلا (١)
وقال في مدحه ذا كراً محاسن سواده حين هنأه بدارٍ بناها :
نزلت إذا نزلتها الدار في أحسن منها من السنى والسناء
حل في منبت الرياحين منها * منبت المكرمات والآلاء (٢)
تفضح الشمس كلما ذرت الشمس بشمس منيرة سوداء
إن في ثوبك الذى المجد فيه * لضياء يذرى بكلّ ضياء
إنما الجلد ملبس وايضاض النفس خير من ابيضاض القباء (٣)
كرم في شجاعة وذكاء * في بهاء وقدره في وفاء
من لبيض الملوك أن تبدل اللون بلون الاستاذ والسحناء (٤)
ثم هجاه ذاماً سواده بقوله :

العبد ليس لحرّ صالح بأخ * لو أنه في ثياب الحر مولود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه * ان العبيد لأنجاس منا كيد
ما كنت أحسنى أحياء إلى زمن * يسيئني فيه عبد وهو محمود (٥)
وإن ذا الأسود المثقوب مشفره * تطيعه ذى العضار يطر العاديد (٦)
وقال في مدحه ذا كراً بأنه نال الملك بحق :

(١) الرق القربة الصغيرة يريد أن كافوراً قربة مملوءة ريحاً كريهة . يبتك بذلك
الناس بطاعته وانهم أضل من عبدة الاصنام (٢) يريد بمنبت الرياحين حديقة المنزل
وبمنبت المكرمات كافور (٣) القباء نوع من الثياب (٤) السحناء الهيئة
(٥) تكرر هذا البيت لضرورة ذكر ما بعده (٦) العضرط الذى يخدم الناس
بطعامه ، الرعديد . الجبان

وما كنتَ ممن أدرك الملكَ بالعنى * ولكن بأيامِ أشبنِ النواصيا
ثم قال في ذمه زاعماً أنه تملك بغدره وخيانه لسيده :

أكلما اغتال عبدُ السوءِ سيده * أو خانهُ فله في مصر تأييد
صار الخصى إمامَ الآبقين بها * فالحرُّ مستعبد والعبدُ معبود
وقال في مدحه زاعماً أن الناس أطاعوه لفضله :

يقود إليه طاعة الناس فضله * ولو لم يقدها نائل وعقاب
ثم ذمه زاعماً أنهم أطاعوه لحقهم وفساد إحساسهم :

أنوكُ من عبد ومن عرسه * من حكم العبد على نفسه (١)
وانما يظهر تحكيمه * تحكم الفساد في حسه (٢)
وقال في مدحه زاعماً أن الله جمع فيه كل معاني الفخر :

يدل بمعنى واحد كل فاخر * وقد جمع الرحمن فيك المعانيا
ثم ذمه ذكراً أنه مجموعة نقائص :

أميناً واخلاقاً وغدراً وخسة * وجنباً أشخصاً لحت لى أم مخازيا (٣)
وقال في مدحه زاعماً أنه لما دخل مصر وصل إلى أعز الناس نفساً ،
وأكملهم عقلاً :

حتى وصلت إلى نفسٍ محجبة * تلتقي النفوس بفضله غير محبوب
في جسم أروع صافي العقل تضحكه * خلائق الناس إضحاك إلا عاجيب (٤)
ثم قال في ذمه بعكس ذلك :

ولم ذا بمصر من المضحكات * ولكنها ضحك كالبكا
وأسود مشفره نصفه * يقال له أنت بدر الدجى
وقال في مدحه زاعماً أنه لعلو شأنه تجاوز قدر المدح :

(١) أنوك أى أحمق (٢) يريد أن اختيارهم له ماكا عايبهم دل على فساد
احساسهم (٣) تكرر هذا البيت للمناسبة
(٤) الاروع . الرجل الذى يعجبك حسنه

تجاوز قدر المدح حتى كأنه * بأحسن ما يثنى عليه يعاب
ثم ذمه زاعماً أنه كان بمدحه حيلة لاستدرار خيره ، وأن مدحه ذم للخلائق :
وشعر مدحت به الكركدن * بين القريض وبين الرقي (١)

فما كان ذلك مدحاً له * ولكنه كان هجو الورى

وقال فى مدحه : وقد فضله على ملوك الأرض :

جرى الخلف إلافك أنك واحد * وانك لىث والملوك ذئاب
وأن مدح الناس حق وباطل * ومدحك حق ليس فيه كذاب
إذا نلت منك الوذ قال كل هين * وكل الذى فوق التراب تراب
والكنك الدنيا الى حبيبة * فما عنك لى إلا اليك ذهاب
ثم هجاه مدعياً بأن كونه ملكاً ، مما يقوى حجة الدهريين الذين ينكرون
وجود مدبر لهذا الكون ، ويقولون لو كان له مدبر لما ملك الناس
غير ساداتهم :

من أية الطرق يأتى مثلك الكرم * أين المحاجم يا كافور والجلم (٢)
جاز الألى ملكك كفاك قدرهم * فعرفوا بك أن الكلب فوقهم
يقول إن الذين ملكتهم ، تجاوزوا قدرهم فبطروا وأشروا ، فأذلهم الله
بتملك كلب عليهم ، ثم قال فيها :

إلاقى يورد الهندى هامته * كيما تزول شكوك الناس والتهم (٣)

فانه حجة يؤذى القلوب بها * من دينه الدهر والتعطيل والقدم (٤)

(١) الكركدن - الخرتيت وهو قصير القامة واسع البطن ، ويظهر أن المتنبي
رآه فى مصر لانه لا يوجد فى العراق ، فشبهه به لقبج منطره ويقول كان مدحى
له بين الشعر وبين الرقية . يريد أنه كان يضحك عليه بمدحه حتى يأخذ جوائزه
(٢) المحاجم جمع محجم - وهو كائن الحجامه ، والجلم - المقراض « المقص » يريد
أن الحجامه أليق به من الملك (٣) الهندى السيف يقول ألا يوجد من يقتله
ليزول هذا الشك من الناس (٤) تعليل لطلب قتله

ما أقدر الله أن يخزي خليقته * ولا يصدق قوماً في الذي زعموا (١)
وقال فيه وقد فضله على العرب :

ويغنيك عمماً ينسب الناس أنه * اليك تناهى المكرمات وتنسب (٢)
وأى قبيل يستحقك مدحه * معد بن عدنان فذلك ويعرب (٣)
ثم هجاه ذاماً جنسه :

فلا ترج الخير عند امرئ * مرت يد النخاس في رأسه (٤)
وإن عراك الشك في نفسه * بحالة فانظر الى جنسه
فقلبا يلوم في ثوبه * إلا الذي يلوم في غرسه (٥)
وقال في مدحه زاعماً أنه أذنب في مدح الناس قبله :
وتعذلي فيك القوافي وهمتي * كأنى بمدح قبل مدحك مذب
ثم هجاه زاعماً أنه كان يلهو بمدحه :

أخذت بمدحه فرأيت لهواً * مقالى للاحيق يا حلیم (٦)
فمن هذا يتبين لك مقدار ما ألم بالمتنبى من الألم بعد خيبة الامل . فلما ترك
مصر ، وعاد الى العراق كف عما كان يحجر به من تهديد الناس ، ولم تعاوده
تلك الخواطر إلا مرة واحدة حينما مدح الوزير أبا الفضل بن العميد ، فجرى
على لسانه عفو أقوله :

صغت السوار لكل كفٍ بشرت * بآبن العميد وكل عبدٍ كبرا
إن لم تغثنى خيله وسلاحه * فتي أقود الى الاعادي عسكرياً ؟
ثم أخذ يتودد الى سيف الدولة عن بعد ، ومن قوله فيه :
من عييدي إن عشت لي ألف كافر * رولى من نداك ريف ونيل

(١) يريد أن قتله يعد خزيا للدهريين وتسكديا لزمهم (٢) تناهى - تتناهى
(٣) معد بن عدنان جد عرب الحجاز ؛ ويعرب بن قحطان - جد عرب اليمن .
أى أنت تقدى بعرب الحجاز واليمن (٤) النخاس - تاجر الرقيق (٥) يريد أنه لا
يلوم في نفسه الا من لوم أصله . (٦) الاحيق تصغير أحق

وقوله يهجو كافوراً . ويتملق لسيف الدولة :

أبا النسن قد قيدتني بمواعد * مخافة نظم للفؤاد مروّع (١)
وقدّرت من فرط الجمالة أننى * أقيم على كذب رصيف مصنع (٢)
أقيم على عبد خصى منافق * لئيم ردى الفعل للجود مدّع
واترك سيف الدولة الملك الرضى * كريم المحيا أروعا وابن أروع (٣)
فتى بحره عذب ومقصده غنى * ومرتع مرعى جوده خير مرتع
تظل إذا ماجئته الدهر آمناً * بخير مكان بل بأشرف موضع
ثم صار يمدح من الأمراء، من لم يسبق له مدحهم، وأبدع ما صدر منه فى آخر أيامه
قصيدته التى رثا بها أخت سيف الدولة . وقد ختمها بأبيات اذا تأملتها وجدتها
صورة ما حدث له يقصها على سيف الدولة . ويدعوله ، بأن لا يصيبه مثلها
وهى قوله :

فلا تنلك الليالى إن أيديها * اذا ضربن كسرن النبع بالغرب (٤)
ولا يعن عدواً أنت قاهره * فأنهن يصدن الصقر بالخرّب (٥)
وإن سررن بمحسوب فجعن به * وقد أتيتك فى الحالين بالعجب (٦)

(١) مواعد - جمع موعد - أى منعتنى عن السفر لكثرة وعودك لى ، وذلك
خوفاً من هجائى المقرع (٢) كذب رصيف - منمق كأنه الصدق (٣) المحيا - الوجه
(٤) تنلك أى تصل إليك ، ويريد بالليالى حوادثها . النبع - شجر قوى تصنع منه القسى .
والغرب بفتح الغين والراء نبت ضعيف يقول : إن أيدي الايام تقتل القوى
بالضعيف « كما فعات بى وكسرتنى بيد وشاقى وحسادى وهم أضعف منى »
(٥) الصقر طائر من الجوارح القوية ، الخرب - بالتحريك ذكر الحبارى وهو من
أبلد الطير . يقول : ان الايام إذا أعانت ذكر الحبارى مع بلادته مكنته من صيد
الصقر مع قوته كما فعان بى (٦) فجعن به . أى أوجعن القلب بفقده . يقول :
ان حالى السرور والكدر كلاهما من عجائب الدهر

وربما احتسب الانسان غايتها * وفاجأته بأمر غير محتسب (١)
وما قضى أحد منها لباته * ولا انتهى أرب إلا إلى أرب (٢)
تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم * إلا على شجب والخلف في الشجب (٣)
ومن تفكر في الدنيا ومهجته * أقامه الفكر بين العجز والتعب (٤)
بعد ذلك أخذ المتنبي يحول بين بغداد وفارس وأرجان وشيراز ثم قتل
في رمضان عام ٣٥٤ هجرية وعمره (٥١ سنة)

سبب قتل المتنبي

كان المتنبي هجا رجلاً اسمه ضبة، وعرض بأمه ونسائه تعريضاً أخش فيه،
بقول: لا يطيق قلم الكاتب ان يسطره وأوله:
ما أنصف القوم ضبه * وامه الطرّ طبة
وختمها بقوله:

إن أوحشتك المعالي * فانها دار غربه
أو آنستك المخازي * فانها لك نسبه
وإن عرفت مرادى * تكشفت عنك كربه
وإن جهلت مرادى * فانه بك أشبه

وكان لام ضبة أخ يسمى فاتكاً فأصر على قتل المتنبي وصار يتتبع خطواته
حتى امكنته منه الفرصة وهو عائد من شيراز فخرج عليه وقتله . ونقل الرواة أن
المتنبي همّ بالفرار من وجه فاتك فقال له غلامه مفلح: اتفر وأنت القاتل

(١) الغاية - منتهى الشيء . يقول: ربما حسب المرء للأيام حساباً بآفتائه بما ليس في
حسابه كما حصل لي فقد كنت أحسب أني أبلغ ما أتمنى من كافور فعدت بالخيبة
(٢) اللبانة والأرب معناهما الحاجة . أي لم يقض أحد من الدنيا مراده « يعزى
بذلك نفسه عما لحقه من الندم والحسرة » (٣) الشجب - الهلاك . أي أن الناس
اختلفوا في كل شيء إلا على اهلاك بعضهم بعضاً ، وهذا عين الخلاف
(٤) يقول ان من يفكر في حياته وحال دنياه يعيش متعب القلب لأنه معجز عن بلوغ كل أمل

الخليل والليل والبيداء تعرفني * والسيف والرمح والقرطاس والقلم
فكرّ راجعاً يقاتل خشية العار فقتل فانطبق عليه قوله :

وربما فارق الانسان مهجته * يوم الوغى غير قال خشية العار
ويقال: أن المتنبي مرّ قبل لقاء فاتك بصديق له فأخبره الرجل بعزم
فاتك ، ونصحه بأن يصحب معه في الطريق من يتقوى به ، فأبى وقال لا أرضى
أن يتحدث الناس بأنتى سرت في خفارة غير سيفي فأبان له صديقه سوء
رأيه في ذلك ، فقال له المتنبي « أمن عبيد العصا (١) تخاف عليّ ؟ والله لو أن مخصرتي
هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد معطشون لحسن ، وقد نظروا الماء
كبطون الحيات ، ماجسر لهم خف ولا ظلف أن يردده ! » ثم ركب ومضى
في طريقه فلقية فاتك ، وقتله وقتل معه ابنه محمداً وغلامه مفلحاً
ولإذا فهمنا من عبارة المتنبي هذه أنه كان على ثقة من نفسه بأن فاتكا
لا يقدر عليه ، فكيف نعلل عزمه على الفرار منه عند لقائه ثم سقوطه بين
يديه صريعاً هو ومن معه ؟

لقد فكرت في هذه الواقعة ملياً ، ثم تصورت أنى واقف أنظر إليها عن
كسب ، فرأيت فاتكاً يقاتل المتنبي قتال المظلوم المنتقم الذي يثار لعرضه
وشرفه ؛ والمتنبي يدافع دفاع المذنب الخاطيء فعلت ثمة من أين ظهر فاتك عليه .
فانظر كيف كان شعر المتنبي سبب ألمه مدى حياته ، أبعد عن الناس بعد
أن أدناه منهم ، وقربه من الملوك ثم شرده عن مجالسهم ، ثم جره بين التيه
والكبرياء إلى حتفه أمام من هو أضعف منه قوة .

ثم انظر إلى ألمه كيف كان أكبر مما تطيقه نفسه ، وفوق ما تحمله همته ،
فهلك ولم يقض وطراً مما أراد ، فأصبحت حياته موعظة لمن جاء بعده .

(١) عبد العصا - الرجل الذي لا تستقيم حاله إلا بالضرب واللاذى . والمحصرة -
العصا القصيرة ، الفرات - نهر في العراق يردّه بنو أسد وهم قوم فاتك ، معطشون
لحسن - أى مضى عليهم خمسة أيام لم يذوقوا فيها ماء ، وقوله كبطون الحيات - يريد
تدفق الماء وما يحدثه من التعاريج ، ويريد بالخف والظلف - الأبل والغنم .

ولو أن المتنبي قنع بحياة شاعر لعاش من أسعد الشعراء حظاً ولكنه استسلم
لنفسه فأغوته ، ووقف تحت قدميها فأذلته ، وصورت له مع هذه الآلام أنها
رفعتة فوق الأنام ، فجراته بذلك على أن يقول :

واقفاً تحت اخمصى قدر نفسي * واقفاً تحت أخمصى الأنام

وقد اتبع هواها فأتعبت جسمه ، وشردت نومه ، وكلفته ما ناء به من الغناء
وحال بينه وبين الهناء حتى اضطر لأن يقول إقراراً بما ألم به من الألم :
وإذا كانت النفوس كباراً * تعبت في مرادها الأجسام
وتراه في ظاهر هذا البيت يفتخر ، وفي باطنه يكاد ينتحر .

ومن غرائب الاتفاق أنى رأيت المتنبي افتتح مدح كافر بقوله يخاطب نفسه :
كفى بك داء أن ترى الموت شافياً * وحسب المنيا أن يكن أمانياً
فكان ذلك طيرة لداء آماله التي لم تشف في حياته بنيل ما أراد . ورأيته
ختم رجاءه من كافر بكلمة الخيبة في قوله :

وأعلم قوماً خالفوني وشرقوا * وغربت أنى قد ظفرت « وخابوا »
وبالخيبة رجع من عنده

وأنه قال في آخر قصيدة نظمها يمدح بها حاكم شيراز عند وداعه :
أروح وقد ختمت على فؤادى * بحبك أن يحمل به سواكا
فلم يمدح أحداً بعده .

وفيها يقول :

وانى شئت يطرقي فكونى * أذاة أو نجاة أو هلاكاً

ثم سار في طريقه فكانت هلاكاً ، فسبحان من له البقاء المطلق
(انتهى مبحث حياة المتنبي بين الألم والأمل)

امثال المتنبي

١٣٥١ يوسف احمـ

أتى المتنبي في القريض بخطّة * لها منزل في العالمين جليل
هي المثل المختار من كل حكمة * بمحكم قول ليس فيه فضول
لأن كثرت أمثاله عند عدها * فأمثاله في مثلهن قليل
لا شك أن الأمثال التي جاء بها المتنبي مشهورة في ديوانه ، لم يأت بمثلهما شاعر
قبله ، وقد وقف أمامها مبهوراً كل شاعر جاء بعده ، فهو فيها واحد عديم المثال .
وأمثال المتنبي بنفاسة معانيها ، وبلاغة تركيبها ، وسلاسة ألفاظها ، ونبيل
مغزاها ، تعد من آيات البيان عند الأدباء ، ومعجزات البديع عند الشعراء ،
وفواتح القول عند الخطباء ، وشواهد البلاغة عند العلماء ، فكل مثل منها
إما قاعدة صحيحة في الاخلاق الفاضلة ، وإما حكمة بالغة تخضع النفس لقانونها .
وأى رجل يسمع قول المتنبي :
وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى * ولا الأمن إلا ما رآه الفتى أمناً
أو قوله :

إذا فل عزمي عن مدى خوف بعده * فأقرب شيء ممكن لم يجد عزمًا
ثم يحجم عن اقتحام مضمار هذه الحياة خائضاً جليل الاعمال ؟ وأى مغرور
يصغى لقول المتنبي :

بئس الليالي شهدت من طرب * شوقاً إلى من يبيت يرقدها
أو قوله :

ضنى في الهوى كالسم في الشهد كاهناً * لذت به جهلاً وفي اللذة الحنف
ولا يعود إلى رشده ؟

وقد بلغت أمثال المتنبي في عالم الأدب غاية ليس وراءها مطلع لشاعر ،
فقد عني بجمعها طائفة من أكابر أهل الفضل كأبي العلاء المعري فيلسوف

الشرق ، والصاحب بن عباد إمام أهل الأدب ، وغيرهما ، غير أن أسفارهم أصبحت عزيزة الوجود .

ولقد رأيت الحاجة ماسة إلى نشرها لأنها دروس من الحكمة نافعة في الحث على العمل ومكارم الأخلاق : كالأقدام ، والصبر ، وكرامة النفس ، والعفة ، وحسن المعاملة وغير ذلك ،

فقطفتها من ديوانه ثم رتبها ، وشرحت غامض ألفاظها . وجلوت مغزاها ، فقربت بذلك بعيدها ، وجعلتها في متناول من شاء من طلاب الأدب خدمة للفضيلة . وماتوفيقى إلابالله ،

سمير